

طارق عز

موت

مع إيقاف

التنفيذ

Telegram:@mbooks90



عدد الصفحات

عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات
عدد الصفحات

عز، طارق.

موت مع إيقاف التنفيذ: قصص / طارق عز - ط 2 -

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.

160 ص؛ 20 مسم.

تدمك: 6 - 455 - 795 - 977 - 978

1- القصص العربية القصيرة.

أ- العنوان. 813.01

رقم الإيداع: 2024/ 2556

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: + 202 23910250

فاكس: + 202 23909618 - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى - الطبعة الثانية: 2024م

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

تعبير الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعتبر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصليل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في

هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويله أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا

أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحة جميع أشكال الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

يا ليلة العيد أنستينا

يا ليلة العيد أنستينا وجددتي الأمل فينا

هلاك هل لعينا فرحنا له وغنا

وقلنا الشغد هيجينا على قدومك يا ليلة العيد

صدح صوت أم كلثوم الرخيم في جنبات البيت فنبعنا من راديو زوجتي "عائشة" الأسود الصغير، يخرج من المطبخ ليدور في أرجاء عُرف البيت كلها، كأنما يصدر من الأثاث والحوائط، بل كأنه الهواء ذاته.

فيصل لكل أفراد الأسرة، صغيرها وكبيرها، ليكمل الصورة الممتعة لتلك اللحظة التي سرقتها من الزمن!

برغم إقامتنا في القاهرة منذ عقود طويلة؛ إلا أن زوجتي احتفظت بتقاليد الصعيد حيث أضل كلينا المشترك؛ فأصرت على شراء تلك الشقة التي تحتل دوزا بأكمله في هذه البناية القصيرة، تُقابلها مساحة جرداء تصلح كجراج صغير للسيارات، مُحاطة بشور متوسط الارتفاع، يُبعدنا عن الجيران بمدينة نصر الخالية أصلاً، أما سبب سعيها وراء هذا المكان لسنوات طويلة هو تمسكها بتحويله لصورة بيت العائلة؛ أو البيت الكبير كما أسمته. يتزوج الأبناء وينطلقون في حياتهم، تأخذهم الدنيا والسعي وراء الأرزاق لشتى بقاع الأرض، لكن يظل دائماً لهم مكان ثابت يعودون إليه.

وقد كان لها ما أرادت: بيت مُتسع بشكل غير مُعتاد في هذه المنطقة الناشئة حديثاً، أو في الفترة الزمنية أوائل التسعينيات، وتلك كانت من المرات القليلة التي أصابت فيها زوجتي. فها هو البيت يسفنا جميعاً: عائلتي كلها، أبنائي الذكور الثلاثة وزوجاتهم، وبنثاي الاثنان وزوجاهما، وأحفادي الاثنا عشر، وعلى رأس كل هؤلاء زوجتي، و"سيدة" و"نفيسة"؛ مُعاونتاها الأساسيتان في الاعتناء بهذا المنزل العملاق.

كل من أبنائي وبناتي له غرفة مستقلة، بإجمالي عدد خمس غرف تُضَع عائلاتهم الصغيرة بالكامل، تزيد عليها الغرفة الكبيرة الخاصة بـ"الست الكبيرة"؛ كما تناديها الخادما، وثلاثة حمامات، وصالة استقبال عملاقة تتسع لخمس صالونات، وثلاث شرفات: اثنتان منها متصلتان.

بالفعل، إنه لبيت ضخم، بل وأزيد من اللازم كما قال شريكى في العمل. وإن كنت أتق أنه على صواب، لكن قيمة البيت الحقيقية تظهر في ليالي المناسبات التي تجتمع كافة أفراد العائلات الصغرى المنبثقة من العائلة الكبرى. لم يكن أي بيت أو شقة عادية لتحتمل تلك الأعداد أبداً.

فها هي ليلة العيد قد جمعت كل أفراد العائلة من شتى بقاع الأرض للطقس المقدس الذي لا تسمح "عائشة" فيه بأي تهاون؛ ألا وهو الوجبة الأساسية التي تلم شغل الأسرة. فإذا كان اليوم الأول من شهر رمضان؛ فإفطار اليوم الأول في البيت الكبير، وإذا كان عيد الأضحى؛ فبعد ذبح الأضحية، فوق سطح البيت، تُعد "عائشة" بمساعدة كل نساء البيت- إفطار العيد من "كبد" و"كلأوي" و"فشة"... وخلافه. أما إن كان مثل ليلتنا هذه في عيد الفطر، فلا بد من وجبة الغداء المكوّنة من عناصر أساسية لا تتغير مهما دار الزمن؛ غداء قوامه البط المحفر والرقاق والمحشي بأنواعه، لكن تسبق وجبة الغداء تلك إفطار الشاي باللبن والكعك والبسكويت الذي تنهمك في صنعهما كل نساء الأسرة طوال الليل، لتنتشر رائحة الخميرة والدقيق في أرجاء المنزل.

لأذهب فأطمئن عليهن. ها هي "عائشة" تفترش أرضية المطبخ الفسيحة، إحدى ساقبها التي أوهنتها النقرس أسفلها، والأخرى مفرودة مع التبديل بينهما كل فترة لتفادي "التنميل"، تحوطها صاحبات الفرن السوداء، تتراض عليها القوالب المجهزة من الكعك المغذ للتسوية. كم أنت جميلة يا زوجتي العزيزة وأنت منهمكة في التقطيع والعجن والتجهيز والتحضير! مُنتهى القوة والإخلاص وعنقوان الشباب. كأنما هربت من نظرات الزمن طوال تلك السنين، وكأنما لم تنجبي وثرني كل هؤلاء الأبناء والأحفاد! ما زلت قوية دعوية مُنظمة مثل الماكينة. تُغلفين حنانك بأوامر صارمة عندما تصدحين بتعليماتك لمساعدتيك الاثنتين، وزوجات أبنائك الثلاثة، وبنيتك الاثنتين، لكن أذني لا تُخطئ تلك النبرة الرفيقة وسط الشدة ولا عينيك

اللئين تحتضنانهن جميعا.

ولذلك العجب، رغم تأففي في كثير من الأحيان من صرامة "عائشة" مع الأبناء، وإصرارها على تلك الطقوس إلى درجة التقديس، لكن لا يسعني إلا الموافقة على قوة شكيמתها تلك المرة، فها هو عنادها قد نجح في لم شمل تلك العائلة المشتتة في أرجاء المعمورة تحت سقف واحد!

فالابنة الكبرى "هادية" جالسة بنظارتها السميقة وملامحها شديدة الشبه بأمها، تدور ذراع ماكينة صناعة البسكويت المعدنية بمنتهى الهمة، رغم أنها طيبة مهاجرة إلى أمريكا من سنين، بل إن ابنتيها تحملان الجنسية، ولكنها لا تستطيع أن تتخاذل عن العمل للحظة، وإلا رمقتها أمها بتلك النظرة التي تُجيدها فثجفد الدم في العروق، ولن تكون تلك أعظم العواقب التي ستتحملها!

أما الابنة الأصغر "نرجس"؛ حبيبة أبيها برقتها وشعرها المقصوص دوماً، فلا يستطيع بعد أذنيها، فثرتب أقراص الكعك الصغيرة في صفوف متوازية داخل الصاجات، تمهيدا ليتم إرسالها لفرن الخبز المجاور أو "الفن"؛ كما تنطقها من جراء لسانها الذي عوجه طول الإقامة في هولندا والحديث بلغتهم الثقيلة.

الخادمتان تقومان بالعجن في أوعية كبيرة بشكل مُتتالٍ بلا توقُّفٍ إلا لتعديل خصلة شعر نافرة، أو حكة جلد عابرة تُلظخ وجوههن بالعجين والدقيق.

"صلاح الدين"؛ ولدي الأكبر والأقرب لقلبي، وأكثرهم شبهاً بي بقامته الطويلة وبطنه المتدلي قليلاً الذي يفخر به ويسميه "كرش العز"، يقف بأعلى السلم المعدني ليفك نقوش زينة رمضان من الصالة. يُثبت السلم ولدي الأوسط "جمال الدين" بسمنته المفرطة وصوته الحاد الذي يرد به على مشاغبات صلاح غير البرينة عندما يقوم بوضع المقص أو الزينة على صلته الفسيحة، لطالما كان الاثنان يمثلان "ناقر ونقيب" المنزل، لكن بطريقتيها اللطيفة. أذكر تلك المرة التي أعجبتني أنا شخصياً- رغم تصنعي الغضب وقتها- عندما أخفى "جمال" بنطال وحذاء "صلاح" في يوم زفافه؛ مما أدى إلى تأخره ساعة كاملة عن موعد عقد القران، وكانت القاضية عندما حضر "جمال" لقاعة الفرح وهو يرتدي البنطال والحذاء المسروقين!

فاحتقن وجهه وكاد أن يقلب الفرح لمعركة، لولا أن أصدرت "عائشة" حكمها

القاطع، فذهب الأخان إلى المرحاض وتبادلا الملابس هناك؛ مما نتج عنه ملاحظة يراها المدقق في ألبوم صور ذلك اليوم؛ يجد أن العريس يرتدي حذاء وبنطالاً مختلفين بعضهما عن بعض!

لم ينقطع كل منهما عن صنع المقالب في الآخر، حتى وهما في هذه السن، ومنتزجان، وكل منهما أنجب من الأطفال ثلاثة.

يتبقى الانطواني الأصغر، محبوب الأطفال "نادر"، بشكله المتطابق مع أخيه الأكبر، ولكنته العربية المكسرة المطعمة بالأمريكية؛ بسبب إقامته هو الآخر في بوسطن، وعمله كأحد مهندسي أجنحة مكوك الفضاء في وكالة "ناسا" الفضائية، رغم وصوله من المطار لتؤه بضحة زوجته وولديه لكنه أصر - قبل تغيير ملبسه حتى - على توزيع هدايا العيد على أحفادي المتجمعين حوله؛ فكسر التقليد المعتاد بأن ينقد الأطفال "عيدية" مالية، وأحضر معه هدايا مخصوصة لكل طفل لا تشبه هدية الآخر. كان مبرره دوماً لذلك أن أبا الطفل أو أمه سيتحصلان على المال لادخاره - وهو فهم للمستقبل - لكن الطفل لم يشعر بهجة العيد المخصوصة. قربه الشديد من فهم تفكير الأطفال ربما كان سببه هو انعزاله أثناء طفولته هو نفسه، وميلاده خلال فترة كنت أمر فيها بضائقة مالية استمرت لسنوات؛ فلم يظفر من الألعاب والهدايا إلا ببقايا أخويه الأكبر منه، أقول ربما لهذا السبب يفضل أن يجد الأطفال دوماً ألعاباً جديدة تُتيح لهم طفولة سوية، فيساعدهم على الانطلاق والتجريب بلا تخريب. رأيته قبل أن يصعد إلى البيت ينقد سائق العائلة "عم حسن" العجوز الطيب مبلغاً فحترماً من المال؛ ليحلب لهم مخزوناً ضخماً من المفرقات والصواريخ الصفراء الصغيرة محلية الصنع. لم تُغيره الإقامة في أمريكا والتربية الحديثة وألوية سلامة الطفل، يُصر على الاحتفال حتى التمالة ولكن تحت إشرافه الصارم لتجنب إصابات غير مرغوبة.

مقولته الدائمة كانت:

أنا الألعاب والمرح والإثارة، أما الأوراق النقدية الجديدة والعيديات فعلى الأخوين الأكبر المملين!

تمر عائلتنا الآن بفترة رخاء اقتصادي ملحوظ؛ فبعد تلك الأزمة الطاحنة التي مررت بها حدثت الانفراجة، قابلت زميل دراسة قديماً بالمصادفة في إحدى

المصالح الحكومية ودارت عجلة النقاش عن الأحوال، فصارحته بما أنا فيه، وهنا لمعت الفكرة في رأسه: هو يمتلك من المحال التجارية الكثير، ويحتاج إلى واجهة يتستر خلفها ليتهرب من الضرائب، فعرض الشراكة مقابل أجر متواضع نسبيًا، وافقت على الفور، لكن عندما بدأت في مباشرة عملي والذهاب كمالك لبعض المحال- بشكل صوري- لاحظت بعض التطويرات البسيطة الممكنة في نظام التخزين والمحاسبة، عرضتها عليه فأعجبته، فاستجاب، وكان المردود فائقًا للتوقعات، بأرباح مباشرة نتيجة خفض التكاليف، بدأ في تكليفي بمهام حقيقية وُفِّقَت فيها كلها فزاد وزدت، ويومًا ما أقر أن لدي موهبة فطرية في التجارة، وعرض مشاركتي بشكل حقيقي، فوافق، وخلال عدد محدود من السنوات تضاعف حجم العمل حتى اقترب من التحول لكيان اقتصادي حقيقي، انعكس ذلك على بحبوحة المعيشة، فامتلكت من المنازل بيتنا هذا وآخر أصغر في الإسكندرية، ومن السيارات ثلاثًا، وأردت تعويض أبنائي عن فترات الضنك، فحددت لهم راتبًا شهريًا رغم أن كلاً منهم مستقل ماديًا، وأغدقت على أحفادي من حناني ومالي.

أفقت من خواطري بسبب فضول حقيقي يتملكني لاستكشاف هدايا "نادر" لأطفال العائلة.

ها هو يجلس القرفصاء على الأرض، تحاوطه الحقائب من كل جانب، ويقف أمامه الأطفال بترتيب معكوس من الأصغر إلى الأكبر، طالما أحسست بتفضيل "نادر" لآخر الأطفال من كل العائلات، بالتأكيد السبب يعود لأنه هو نفسه كان آخر أطفاله، وأقلهم حظًا، فيتعاطف مع من يماثله غريزيًا.

انطوائيته الشديدة انعكست على قوة ملاحظته، فكان يُحلل طباع كل طفل: ما يُحب، ما يكره، ما يفضل، ما يبغض، هواياته وأحلامه، ومن ثم يفاجئه بإحضار الهدية التي تلائمه بالضبط كأنها خلقت من أجله، فتكون سعادة الطفل مضاعفة. مرة بسبب تفكير عفه فيه، ومرة بسبب تماثلها مع شخصيته، حتى لو كسرت القوالب الجامدة المحضرة مسبقًا لهدايا الأطفال؛ الولد مُسدس أو زي عسكري، والبنات ذمية أو فستان.

الأطفال تتحرك تجاهه في نظام هندسي محفوظ، علامات الترقب ترتسم على ملامحهم، الكل مُتحفز لهدية يعلم بحكم التكرار أنها ستثيره لأسابيع قادمة. يتقدم

الطفل يتسلم اللقافة الملونة بلونه المفضل، وقبل أن يهرع ليفض الغلاف البراق يحتضن عفه بخب حقيقي لا تشوبه شائبة طمع؛ فهو قريب منهم بشكل غير طبيعي. وبالرغم من تجاوزه الثلاثين، إلا أنه ما زال مُنغلقًا على الكبار، مُنبسطًا مع الأطفال، ينسى منصبه ونضوجه ويتحوّل إلى طفل يماثلهم، يتماثل بتفكيره مع قدراتهم الذهنية، يتفهم خلافاتهم واختلافاتهم.

ما إن ينتهي من توزيع الأنصبة، حتى يندمج معهم بكل كيانه. يفتح لهذا هديته، يشرح لتلك كيف تستفيد من خاصتها لأقصى حد، يُنظم بينهم الألعاب المميزة التي تُقربهم ولا تُذكي روح التنافس بينهم. لمحت "عائشة" تراقبه من بعيد وهي تقف شامخة مُنتصبة الهامة رغم سنواتها التي أثقلت ظهرها، يداها مُشفرتا الكُفين مُلطختان بالعجين، دامعة العينين!

لم ألتفت إلى دموعها، فذلك هو دأبها طوال عمرنا: تحزن فتبكي، تفرح فتبكي، يموت أحد الأقارب فتبكي، تزوج أحد الأولاد فتبكي! لطالما كانت الدموع الصامتة وسيلتها في التعبير عن عواطفها الجياشة التي لم تتعلم التحدث عنها بالكلمات. تُجيد إخفاء المشاعر وتُظهر الوجه الصلب القاسي، لكن عندما تختفي عن الأنظار أضيبتها متلبسة بالجرم المشهود؛ دموع الحب.

دموع من لم تتعلم التعبير بالكلمات فاكتفت بالغبرات.

تلاحظ أن وقفنها طالت، وقد يلح أحدهم جانبها البشري الذي تحاول إخفاءه طوال عمرها، فتستدير لتمسح وجنتيها بظهر يدها وتصيح بالمزيد من الأوامر؛ ارفعوا صوت الراديو، وزعوا الحلوى... إلخ إلخ.

نادت على ابنتها الكبرى وكلفتها بمهمتها السنوية المقدسة: الظروف المغلقة التي تحوي الزكاة (أو الصدقات) حسب الموسم، وإعادة توصيتها بالكلام المكزّر عن تحري الدقة في توزيع المال وعدم الانخداع بالمظاهر.

أما الكبير، فتكون مسؤوليته توزيع الصدقات العينية على مُستحقها، والتي تختلف بحسب طبيعة الموسم؛ في عيد الأضحى تكون كميات ضخمة من اللحوم المتنوعة، التي ينتقيها من أجود البهائم بعد رحلة إلى قرية بعينها لا تُطعم حيواناتها إلا كل ما هو طبيعي، يُحضرها محمولة على عربة نقل لتعيش فوق

سطح المكان لفترة من الزمان، لراقبها ونطمئن على صحتها، حتى يحين أوان الذبح.

ألتفت من خواطري على صوت صخب مرح يصدر عن الأطفال، مثل كل مرة تحدث فيها تلك التجمعات العائلية التي تُعيد الحياة لهذه الشقة المقفرة، ضجيج لطيف لا يؤذي العين، ويهيج الأذن، انقسموا لفريقين وانطلقوا لكل أرجاء المنزل يُطلقون النار على بعضهم البعض، ويمثلون السقوط فالقيام لمعاودة الحرب.

كلهم انضم للعب، يتتبعهم "نادر" بكاميرا كبيرة يحملها على كتفه، يُسجل عليها قدر ما يستطيع طوال فترة الإجازة، حتى تؤنس غربته في طول البعاد كما يقول. كلهم انضم إلا "محمد"؛ حفيدي الأكبر، هاوي التصوير الفوتوغرافي، انتحى جانبنا وتسلل دون أن يشعر به باقي الصاخبين بخفة، لكنني لمحتنه، انسل إلى جزء مظلم نسبيًا من صالة المنزل الفسيحة، حائط عملاق خالٍ من أي زخارف أو لوحات لمناظر طبيعية، خصصته زوجتي لصور العائلة فقط، تتناثر عليه بنظام محدد سلفًا صور لكل رجل وسيدة وطفل ينتمي لهذه العائلة، مُرتبة من أصغرها الرضع حتى كبارها.

تقدم "محمد" من الصور وهو يحمل هديته؛ كاميرا تصوير فورية حديثة، لا يوجد منه في البلاد إلا عدد محدود يُعد على أصابع اليد الواحدة، يُمسكها بتقدير واضح ويُقدمها ببطء صوب الصور المعلقة على الحائط، بعينين مُغرورقتين بالدمع تحدث لإحدى الصور:

"جئت لأريك هديتي، فأنت أول من شجعني على تتبع هوايتي، ومدح جودة صوري، لكّم تمنيت أن تكون أول صورة بتلك الكاميرا هي لك".

رفع يده وقزّب الكاميرا بشدة نحو صورة بالأبيض والأسود، يُزين جانبها الأيمن شريط أسود، وأكمل بصوت مُختنق بالعبرات:

"لك أنت، يا جدي!".

... وكانت هذه.. صورتي!

كل الوحدات ترى البحر

- صباح الخير، أبارك يا "حامد"، أحسن؟

- الحمد لله يا دكتور.

- نُكمل؟

إيماءة بالرأس مُترددة.

- اتفقنا ألا نخاف، ما فات مات.. نحن نساعدك للقادم.

إيماءة أخرى أقل ترددا.

- نُكمل أم نبدأ من البداية؟

حامد

كبرت لأجد نفسي بين أقراني في نفس المكان، لا أعرف لي أصلاً أو سكننا غيره، منطقة وسيطة تقع بين المناطق الفاخرة التي نسمع عنها في الساحل الشمالي والمناطق القديمة في العجمي. مكان يُسمى "أبو ثلاث" ولا أعرف سبب التسمية، لكننا وجدنا الناس كلهم يُسمونها كذلك فأكملنا معهم، شواطئ رملية كبيرة تصل حتى العمار، معظم أبنيتها تحت الإنشاء، يعمل بها الغمال (الأجرية) من الصعيد في الشتاء فقط، أما في الصيف فهي مَنفذ للفقراء من الراغبين في بعض البحر والرمل وقليل من رائحة المصيف. يحضر إلينا أب يُجرجر أطفاله وأمهم الملتحفة بالسواد ليؤجر إحدى "العشش" التي نسكن فيها.

نعم؛ فأسرتي وكل معارفي هم من الغمال الصعايدة الذين استثقلوا الذهاب والعودة كل صيف إلى بلداتهم الأصلية، ففضلوا البقاء هنا بجوار لقمة العيش، لم نعلم من أقام العشة الأولى من الخوص وجريد النخيل المدعم بعروق الخشب وبقايا مواد البناء المتخلفة من عمارة تحت التشطيب، لكنها بُنيت وظهرت بجوارها

أخرى فأخرى، حتى تكوّن ما يشبه قرية صغيرة من عشش الخوص. تسكن عائلة كاملة في كل عشة مهما كبر حجم تلك العائلة أو عدد أفرادها. ولأننا جميعًا من الصعيد، فتجدنا نحمل بعض الأصول المشتركة بالرغم من اختلاف المحافظات التي أتينا منها. بعضنا من "قنا" أو "سوهاج"، والقليل يمتد حتى "الأقصر"، لكن يجمع بيننا الدم الصعيدى الحامى والطباع صعبة المراس التي لم تُليّنْها السكنى في "بحري"، وأكثر تلك الطباع تأضلاً وأهمها.. هي التكتاف.

(ملحوظة من الطبيب: هنا شَبَك حامد أصابع يديه مغًا).

كلنا نحمي بعضنا البعض، فرحنا واحد.. وفصابنا واحد.

لذا عندما يهَلْ علينا ذلك الأب بصحبة أحد رجالنا مُحترفي السمسة ليسلمه لرجل آخر يملك عِشَّة بسيطة ليستأجرها ويقبض منه الحلوان، تجدنا نُعيد توزيع أنفسنا على باقي العشش حتى يُمكننا استيعاب الأسرة التي أُخلت المكان للمصطافين.

من بعدها تفتح لنا كأطفال أبواب الرزق البسيط، فتصبح مهمة أطفال المكان المستأجر دون غيرهم تلبية طلبات الساكن الجديد البسيطة، وشراء حاجياته الأبسط مقابل إكرامية متواضعة الكل بها يتراضى. الرجل يبرز أمام أسرته الفقيرة أصلاً كم هو معطاء ولا يبخل عليهم أو على من يخدمهم، ونحن نتحصل على مبالغ بسيطة تضمن لنا بعض الحلوى محلية الصُنع "الفريسكا" أو أكواز البوظة، مع الجري هنا وهناك لجلب الطلبات ثم النوم مُنهكين آخر اليوم بجوار أصدقائنا فلا تضيع علينا فرصة للعب ليلاً أو نهارًا.

أما أبى "راضى"، فلا يتخصص في نوع معين من البناء، بل يعمل كأجير باليومية. بعض الأحيان يساعد في رفع أجولة الأسمت على السقالات، يهدم جدارًا، يدق مسمازًا، يزيث منشازًا... وغيرها مما لا يتطلب تعلّم الحرفة منذ الصغر، فقد نشأ كفزارع ابن فزارع. يمتلك "الأطيان" كما حكى لنا مرازا، وكنا لنصبح نحن بدورنا كذلك لولا دورة الزمن التي جارت على جدي فأكلت الأخضر واليابس، فاضطر أبى للنزوح لهُنا هربًا من ضيقة الحال التي ضربت بلدتنا كلها.

ظل على هذا التنقل بين الجزف حتى أقعده داءٌ أصاب ظهره فلم يعد يقوى على

(ملحوظة من الطبيب: من وصف حامد، أعتقد أنها مشاكل في الفقرات القطنية بالعمود الفقري).

توسط له بعض قدامى سكان المكان عند أحد أصحاب العمارات التي لم تكتمل، فعمل بها خفيًا بسيط المهام، يُغطي أجولة الأسمت بالمشمع العازل في الليالي المطيرة حتى لا يفسد، يحضر فطور العمال ظهرًا مع أدوار الشاي المتلاحقة على "راكية" الحطب وغداءهم بعد أذان العشاء، الحراسة وبعض المشاوير والقليل من السمسة.

ظل الحال على ما هو عليه؛ نقيم أنا وأبي بعد وفاة أمي في عشتنا، يومنا مثل أمسنا يطابق غدنا، حتى أتى ذلك اليوم المشنوم! استيقظنا ذات صباح لنجد المكان يعج بمعدات حفر وبناء ضخمة متطورة تختلف عن تلك التي كان يستخدمها المقاولون في منطقتنا! يصحبها فريق من المهندسين يرتدون خوذات وملابس فسفورية لامعة، تتقدمهم عربات شرطة مُحفلة بجنود الأمن المركزي. انتشروا في لمح البصر ثم توقّف الجميع في مكانهم في صمت من بعد صخب؛ فقد كنا نعرض وكانوا يهذون، كنا نسب وكانوا يردون السباب.

وصلت سيارة سوداء، زجاجها أسود، عجالاتها سوداء، نزل راكب مقعدها الخلفي المرتدي الأسود عندما فتح له الحارث صاحب البذلة السوداء هو الآخر. نزل بتؤدة يمسح عرقه الغزير عن ذقنه اللحيم بسبب حرارة الشمس المسلطة على رؤوس الحضور، أو ربما بسبب ما أتى ليقوله لنا!

فقد قال وأعاد، ولفّ الكلام وأداره، وكل حديثه يتلخص في أن الحكومة قد قررت إزالة عيش الخوص التي نسكنها. تقليل مساحتها، بل وإبعادها للداخل عن البحر لمسافة كبيرة حتى يُبنى مكانها عمارات موحدة اللون كبيرة، ثم يتم تسكيننا فيها عندما تنتهي، وبيع الباقي للمواطن محدود الدخل.

اختلفنا في تقبلنا لكلامه، بعضنا تفاعل وقال في نفسه القليل من شظف العيش والتسكّع عند أهالينا في بقية العيش حتى ينتهي البناء وننتقل للبحوحة، لكنهم كانوا قلة، أما الأغلبية، فقد تشاءموا وقرروا هجر المكان بالكامل. انقسموا؛ نصفهم

شد الرحال إلى قرى الساحل السياحية الفخمة؛ لعلهم يجدون فيها سبيلاً للعمل
بمعاونة أحد "بلدياتنا"، والبعض الآخر قرر الذهاب إلى "العجمي" و"البيطاش"؛
فلهم فيها قريب من هنا أو معرفة من هناك، تضمن لهم حياة شبه مستقرة حتى
نرى هل ستصدق الحكومة أم لا، أما القسم الأخير منهم، فعاد أدراجه للصعيد
وفضل التسول في بلاده عن التلطم في الغربية.

ومن هنا تشرذمت الجماعة وتفزق الحشد، لكنّ أبي فضل البقاء ونجح في
التمسك بعشتنا البعيدة عن البحر كإحدى العُشش المحدودة الباقية بعد الإزالة.
سكنا فيها أنا وهو لفترة من الزمن، بدأت فيها أعمال البناء التي لا تتوقف في طرح
ثمار النتائج، من قواعد وأعمدة وسقالات، فاستبشر أبي بقراره الحكيم.

لكن بعد ذلك بشهور من الهدوء، تقدمت مُعدات الهدم صوب العُشش المتبقية،
ومعها نفس الجفج من مهندسين وشرطة، تبعتهم نفس العربة السوداء المشنومة،
نزل منها نفس السيد الفخم صاحب السطوة والكلمة المسموعة.

وأيضاً قال وأعاد، ولف الكلام وأداره، وكل حديثه يتلخص في أن باقي
العُشش مصيرها المحو، فتلك الأرض دخلت ضمن مشروع مشترك بين الحكومة
والقطاع الخاص لإنتاج وحدات سكنية اقتصادية مختلفة عن الأولى، مخصوصة
للمصطافين محدودي الدخل، بأسعار تبدأ من مليون جنيه فقط!

ولما بدأت البقية الباقية من السكان في التذمّر والصياح، بادرهم هو بالصياح
بصوت أعلى فطمئناً أننا سنعوّض بمبالغ مالية محترمة تضمن لنا عيشة كريمة.
أنهى كلامه وانصرف في عربته السوداء مُثيراً الغبار في وجوهنا، بعدما أمهلنا أياماً
معدودات وبعدها سيتم مُحونا بالقوة.

مز اليوم على أبي واجفاً لا يتكلم ولا يأكل بل يتأكل، ويُدخن تلك السجائر
الطويلة واحدة ملتحمة بالأخرى، وعلى وجهه سمات التفكير العميق، عندما حلّ
المساء مزّ علينا أحد أقربائنا المقيمين معنا في عشة بعيدة نسبياً، جلس هو وأبي
بالخارج يُدخان ويتناولان أكواب الشاي المتتالية بلا انقطاع وتتعالى نبرة نقاشهم
الحادة، خرجت معها لأستطلع ماذا هنالك!

جلسْتُ على مبعدة منهم، ولكنني قريب بما يكفي لأسمع كلامهم، أو للدقة

كلام الرجل الذي كان يُعيد على أبي ما علمه على مدار اليوم بعد التقصي وجلب المعلومات من هنا وهناك.

الأرض سُخلى باللين أو بالعنف، فالقطاع الخاص المشارك للحكومة في المشروع الجديد هو شركة يمتلكها من الباطن ثري ابن مسئول كبير يرغب في إقامة فرع جديد لنفس المشروع الناجح الذي سبق له افتتاحه في "مرسى مطروح".

ويستعين بمجموعة من بدو مطروح كانوا يضعون أيديهم على أرض المشروع هناك، فأغراهم بالمال وتعاون معهم وأصبحوا قوته الضاربة فأتى بهم سزا إلى هنا، وهم لا يحملون أوراقًا ولا تعرف عنهم الحكومة شيئًا، يحكمهم قانون القبائل والعشائر الموالي كبراؤها للمسئول إياه.

وهم من سيتولون إخلاء العيش بالقوة في حالة رفض السكان الرحيل، عندها لن تتدخل الحكومة؛ فهذا سيُعتبر نزاعًا محليًا أو أهليًا يُحل بالغرف لا القانون.

أنهى كلامه بعدما نصح أبي بقبول التراضي والاستفادة بالمبلغ ثم رحل، تاركًا أبي على جلسته يُفكر ويُدخن، حتى مز الفجر وأتى الصبح ومعه عاملان من المشروع الجديد، دقًا عمودين من المعدن يحملان لافتة ملونة عليها تصميم مبدئي للمشروع الجديد، كُتبت عليها كلمات قرأها لي أحد أصدقائي المتعلمين، لا أذكر منها إلا:

بادر بحجز وحدتك.

كل الوحدات ترى البحر.

ألقي أبي بعض الماء على الحطب المخصص لصنع الشاي، وقام من مجلسه وعلى وجهه ملامح من اتخذ قرارًا مُجبرًا عليه. غاب بعدها عدة ساعات وعاد مُحملًا بكيس بلاستيكي أسود اللون ملفوفًا حول نفسه يضمه إلى صدر جلبابه بحرص، أخبرني أننا سنعود لديار أهلنا في الصعيد، وبذلك المال الموضوع بالكيس سنشتري "قيراظا من الطين" فأرضنا أولى بنا، ثم أمرني بعدها أن ألمم حاجياتنا البسيطة استعدادًا للرحيل المبكر في الفجر.

فعلت ما قال وذهبت للنوم ثبلل الدموع وجهي على فراق الأحبة.

(ملحوظة من الطبيب: بداية من هذه الفقرة تهذج صوت الطفل، وأصبح تفسير كلماته عسيًا).

لكن ما إن أغمضت جفوني حتى قمت مفزوغًا على أصوات صراع وصراخ وتهشم لجنبات العشة، حيث اقتحم المكان مجموعة من الرجال الملتئمين يحملون بنادق آلية ويتحدثون بلكنة غريبة على أذني، هذدونا بالسلاح وأمروا أبي بتسليمهم المال بصوت واثق كأنهم متأكدون من وجوده. غلت الدماء الصعيدية في عروقه، فانقبض عليهم يصرخ فيهم ويحاول تمزيقهم بأظافره وأسنانه.

هاج وماج وصرخ بكلام كثير عن سرقة كل ما يملك، ولما تكالبوا عليه استعطفهم بعدما أركعوه على ركبتيه وقيدوا ذراعيه وراء ظهره. استعطفهم أن يتركوا له القليل الباقي حتى يستطيع الإنفاق على من بقي من عائلته؛ وهو أنا.

أما أنا، فقد كنت فختبئًا أسفل السرير الخشبي المتهاك، تنهمر دموعي بخرقة على أبي الذي قهره العجز وتكالب عليه الكلاب، أضع يدي على فمي لأقاوم الصراخ، لأقاوم الألم، لأقاوم الشهيق، حتى لا يدركوا وجودي وينالني ما ناله.

لكن صوتي خانني!

خانني عندما دوى في فضاء الحجرة صوت الصفعة التي رئت على صفحة وجه الصعيد المهزوم، فعرفوا مكاني، قلبوا السرير وجرجروني من ثيابي فمزقوها، ووضعوا فوهة البندقية في جبهتي وهذدوه من جديد.

بدأ يلين وعاد للاستعطاف بعدما فارت الدماء الصعيدية في عزقه من جراء الصفعة، وبعد المقاومة والصراخ بللت الدموع لحيته لكنه تمسك بأخر أمل في أن يتركوه مع النقود بسلام. هنا أشار أحد الملتئمين للأخر الممسك بي بطريقة معينة لم أفهمها، لكن فهمها زميله، فأكمل تمزيق ثيابي حتى صرت عاريًا وبدأ يعبت في جسدي من الخلف!

تعالت صرخات أبي ونشيجه الخليط بين التهديد والرجاء، لكنهم صمتوا واستمروا في مراقبة زميلهم وهو يندمج فيما يفعله معي، بعد هنيهة صاح من بدا

ككبيرهم بلكنته الغربية:

انطق بمكان المال وإلا قلبنا لك المحروس "خزمة".

عندها انهار "راضي"، وأصبح راضخًا، فنطق بالمكان المدفونة به الأموال. ذهب اللصوص لاقتلاعها ولكن من يكبلني لم يتركني، بل تهادى في لعبه بأجزائي. ثارت ثائرة الوحش المكبل بعد نحيب، وكاد أن يمزق قيوده غضبًا على ولده المفتصب، فانقض زعيفهم عليه بدبشك البندقية بضربة قوية لمؤخرة رأسه فارت معها الدماء القانية، لم أحتمل المنظر فماددت بي الدنيا.

(ملحوظة من الطبيب: بداية من هذه الفقرة تحوّل كلام الطفل لبكاء تفصله كلمات قليلة، مع التأكيد على احتضانه لنفسه طوال باقي الجلسة والتمسيد المستمر على نصفه السفلي).

أفقت لأجد نفسي فلقى على الرمال التي تملأ فمي، فغطى ببعض الخزق البالية عارنا من أسفلها، وأشعر بألم رهيب في نصفي السفلي، صرخت أبحت عن أبي، لكنني لم أجده، لكن وجدت عم "صابر" بانع "الفريسكا" العجوز يمسك بي ويهدئني شارخا ما حدث.

كل من استلم ماله رحل عن المكان في نفس الليلة كما لو كانوا يعلمون ما سيحدث، عصابات البدو التي أحضرها البك الكبير طمعت في زيادة دخلها، فرصدت كل من حصل على المال وتقاوس عن الخروج، وعندما جن الليل هجموا عليهم في نفس التوقيت، سلبوا المال وأخرجوهم بالقوة. وأكمل بعدما طأطأ رأسه ليهرب من عيني، ومن قاوم عاقبوه في أحد من أسرته أو... ولده!

سألته عن أبي، فأشار أنه أفاق قبلي ببرهة وجيزة، وقام يجري باكي العينين بعدما أدرك ما جرى لي صوب موقع حفر المشروع الجديد. لملثت الأسماك حول جسدي كيفما اتفق، وقمت أهروول لألحق به بقدر ما قدرت على تحفّل الألم الصاعد من نصفي السفلي والدمع يغمر عيني ويثوش الرؤية.

لمحته من بعيد يضرب لافتة المشروع الجديد بعصا غليظة يحملها ليسقطها وهو يصيح بكلمات شوهاها ريح الفجر البارد، ثم استدار صوب البحر وأنا في أثره أنادي عليه فلا يسمع.

خاض في الماء المالح بكامل ملبسه، وأنا أحاول اللحاق به، أسقط وأتعثر وأقوم
والألم الفمض يتصاعد مني حتى لمحت دماء تنزف على فخذي فلم أبال، كان كل
همي اللحاق به.

صرخت.

وصرخت.

لكنه لم يسمع.

حاولت فجاراته لكن الألم وصل للقدر غير المحتمل، فبركتُ على رمال الشاطئ
متقطع الأنفاس مبحوح الصوت دافع العينين.

أستمع لآخر كلماته التي حملها لي ربح البحر الذي تجاوز مائه المالح صدر
الـ"راضي":

كل الوحدات ترى البحر.

كل الوحدات ترى البحر.

كل الوحدات ترى البحر!

عرض حالة

السيد المحترم مدير مستشفى الأمراض العقلية والعصبية.

رئيس قسم نفسية الطفل

تحية طيبة وبعد.

مقدم لكم تقرير من واقع كلمات الطفل "حامد راضي السيد" المحول لنا من
نقطة... بعد الحادث المذكور في محضر شرطة رقم (مرفق صورة المحضر).

بعد عدة محاولات لتهدئة الطفل المذكور، وجلسات متكررة، مع اتباع
استراتيجية العلاج الموضحة من قبل سيادتكم، استطعنا استخلاص السابق، ولم
نتدخل إلا لتنقيح وتعديل الأحداث ووضعها في سياق رسمي يوضع بين أيديكم

"تم إرسال نسخة طبق الأصل للنيابة العامة"

توقيع

طبيب معالج

.....

ملحق

بيان النيابة العامة

بشأن واقعة وفاة المواطن حسين أبو الليل الأبيض

حيث ورد إلى النيابة العامة تقرير مصلحة الطب الشرعي بشأن إجراء الصفة التشريحية على جثمان القتيل حسين أبو الليل الأبيض؛ والذي أثبت أن سبب وفاته هو عدة طعنات بالغة حادة في أماكن متفرقة بالظهر والعنق، وما أحدثه من نزيف حاد وفشل تنفسي حاد وتوقف لعضلة القلب، وأن الوفاة مُعاصرة للتاريخ الثابت بالتحقيقات.

هذا، وكانت النيابة العامة قد استكملت التحقيقات بسؤال شاهد عيان الواقعة "صابر أيوب يوسف"؛ الشهير بـ"صابر فريسكا"؛ حيث شهد بعد الاستجواب المطول بإبصاره الطفل "حامد راضي السيد" ظهيرة يوم الوفاة يسحب "مطواة قرن غزال" يمتلكها والده المنتحر حديثاً ويتجه صوب مكان تجمع بدو "مرسى مطروح" المقيمين بالمنطقة لحراسة مشروع "... الإسكاني، حاول اللحاق به لكن اعتلال صحته منعه.

وبسؤال اثنين من المراقبين للمتوفى؛ حيث شهد كلاهما بقفز الطفل على ظهره وإصابته بعدة طعنات في أجزاء متفرقة من الجسد، بعد محاولة الفصل بينهما وإسعاف المصاب تبين لهما مفارقتة للحياة.

ملحق 2

بيان النيابة العامة

بشأن واقعة وفاة المواطن حسين أبو الليل الأبيض

بعد الاطلاع على تقرير مصلحة الطب الشرعي، وعرض الحالة المقدمة من مدير مستشفى الأمراض العقلية والعصبية عن الطفل "حامد راضي السيد"، بأمر النائب العام بعدم فبارحة المتهم "دار رعاية الأحداث" لحين بلوغه السن القانونية، واتخاذ المحكمة معه ما تراه من إجراءات، مع التأكيد على عدم قانونية نشر صورة الحدث (الطفل)، وإدخاله ببرامج تأهيلية لإصلاحه.

تساؤل

بوجداني سؤال يتردد:

"هل لمثلي نصيب من حسن الخاتمة؟".

يناير البارد، الإسكندرية عجوزنا الفتية، شوارع مهجورة من البشر، مسكونة بالصقيع والريح العاصفة، نوة رأس السنة تُرسل أمطارها مدرّازا على الرءوس، أختين أسفل لافتة محل العصائر الشهير، يفتصب النهار غذرية الليل فيلطح اللون الدموي سماني، جفت الأنهار السائلة من السماء واقترب النهار ومعه اقترب رحيلي. لكن لا ضير من بضع دقائق إضافية، لعل الرزق يأتي.

أنفت دخان سيجارتي في الهواء، فأضيف للشبورة قليلا من البخار وكتيذا من الكآبة، ليس بالموسم الراج لعملي مطلقا، أضم معطفي على جسدي بخكم العادة لا أكثر، فالطقس المثلج لم يغد يؤثر في جسدي، فقد اعتاد أحدنا على الآخر.

أعدل هندامي المتهالك، أسوي شعري الطويل وأزيل أحمر شفاهي الرخيص؛ فقد أوشك الليل على الموت وبدأت قيامة النهار. يبدو أنها ليلة أخرى بلا جدوى ولا طعام. أطرّح أنفاس سيجارتي الأخيرة أرضا وأسحقها بحذائي البالي فطلقة غابات الدخان، مصحوب بلهيب حنقي وخيبة أمني، وأهم بالانصراف.

لكن تتوقف تلك السيارة الأنيقة في منتصف الطريق، مثيرة حولها المزيد من الضباب. ينفتح بابها، يترجل عجوز فاخر يتظاهر بإشعال سيجارة فاخرة، ولكني أدرك أنه يطالعني بجانب عينه؛ فقد اعتدت تلك النظرات المتفحصة لكل من احترّف التعامل مع مهنتي. يحاول التظاهر بالثقة إلا أنه قلق، لربما هو مُستجد، يتقدم نحوي بخطوات متوترة، يريد مني سلعتي الوحيدة.. لكن مني أنا؟

إنه يبدو ثريا، بل أكثر ثراء من منطقتي بأكملها. يستطيع بالقطع قضاء الوقت مع من هي أكثر جمالا ورشاقة وعذوبة مني! لكنني بخكم طبيعة العمل واختلاف طباع البشر اعتدت غرابة الأطوار. لربما كان يحب الفقر والشقاء والبؤس

فجتماعين!

لا يهم، فلولا اختلاف الأذواق لمثُ جوغا. الآن يتقدم.. يتفاوض.. نتفق.. أركب
إلى جواره...

يسود صمت فوح، تنتشر أنفاسه ثقيلة من وطأة التدخين والسن، أو ربما مرض
صدرى ما... لا يهم.

أكاد أشم رائحة الأدرينالين تبعث من عروقه، قطرات العرق تحتشد على منابت
صلعته الواسعة وأعلى شاربه الكث رغم برودة الأجواء، فهو مستثار لأقصى مدى،
متوتر لأقصى حد. الغريب أنه لا يقدم على شيء؛ فالمعتاد أن يطمع الزبون بدفعة
مقدمة أو عينة مجانية للتجربة، كما أنه لا يتظرف أو يلعب دور زير النساء!

أشعر بالريبة؛ فنظراته الجانبية عجيبة، وكأنما يخشى مواجهتي! أذنه محمرة
كطفل لوث ملابسه ويخشى تقريع أمه. الاضطراب يرسم بصمته على ملامحه
المتفضنة، ينظر أمامه بثبات كأنه يتحاشى نظراتي!

يوقف السيارة بقدر من الرعونة أمام بناية فاخرة بمنطقة رشدي على البحر.
يقول مقتضبا وهو ما زال يُحدق للأمام: "وصلنا".

نترجل مغا، الرياح تعبت بملابسي، ورذاذ البحر يحيل الرؤية إلى رفاهية بعيدة
المنال. الطقس في هذه المنطقة يُعاديّني بشكل شخصي، أزيد إحكام معطفي
وأعدل نظارتي الشمسية المقلدة، فهي مهمة لإخفاء الملامح، ندخل البناية بحذر
القطط برغم أن البواب يغفو في سلام كالأطفال بصوت غطيظ فسفوع للأسماك،
يسبقني صاعدا الدرجات القليلة المؤدية للمصعد بدون أن ينظر للخلف، أرى أذنه
تزداد في الاحمرار، إن كان هذا ممكنا، ننطلق بالمصعد للأعلى!

يدس يده في جيبه، يخرج سلسلة مفاتيح، بيد مرتعشة من الانفعال يفتح باب
الشقة الأنيق، ندخل مغا ثم يغلق الباب ورائي. يضيء المصباح رغم ضياء الصباح
الذي غمز المكان، ورغم تأففي من النور.

لا أرى الطعام والشراب المسكر صنوي مهنتي العتيدين، لكنه يقرأ نظراتي فيقول
باختصار: "الطعام بالمطبخ". أتحرك في حيرة خفيفة من المساحات الغريبة على

قدمي، فيشير لآخر الرواق. أهرع لإحضار المطلوب لأن جزءًا من تفاصيل مهمتي هو فن تقديم الخدمة.

أعود مُحملة بالطيبات والمذاذات.

يُفاجئني بتعري نصفه الأعلى، فيظهر جسده المجعد، وشعر صدره الشائب الكثيف!

بيده أظلم الغرفة.. يُريحني الظلام.

يُمزق ملابسي.. يعشق الشراصة على ما يبدو.

يُخرج من خلف الأريكة سوطًا طويلًا كليلتي، أسود كأحلامي.

يوسع كرامتي قبل جسدي بالضربات.

إذا؛ لذلك كان متحفظًا؛ خاف أن أهرب لو علمت بمزاجه المنحرف! لا بد أنه لا يعلم أنني أوافق على أي شيء.. وكل شيء!

ينهكه التعب، يسقط على الأريكة الفخمة مُبتلًا في عرقه، متلاحق الأنفاس، يُراقبني بعين نصف مفتوحة، أتكور حول نفسي وعيني تدمع.

أشار لي بإصبع مهتزة نحو الطعام، فأمسح الدم عن شفتي.

ألملم أشلاء ثوبي الفاضح بابتذال. أجهز الطعام على المائدة، يقوم مترنخًا من الإنهاك والنشوة.

ثم يُعاود الكرة مرارًا وتكرارًا؛ منذ شروق الشمس حتى المغيب:

اغتناب بمقابل مادي...

طعام...

سوط...

دماء...

أخيرًا، زهد السيد في جسدي، فألقى نحوي بأجري. نظرت لبقايا الطعام بعين فقدت مفهوم الكرامة. أشار لي أن أخذه باشمزاز، وأشاح نحو الباب.

غسلت وجهي في محاولة لمداراة الكدمات والجروح، جمعت بقايا الطعام في كيس أسود ونزلت من البناية أترنج.

أصل إلى منطقتي "المكس"، وصمة العار في جبين الإسكندرية! رائحة اليود المنعشة تضفد جراح وجهي، رذاذ البحر يتناثر على ملابسي فينعشني وأنا أمتطي القارب الخشبي الأزرق علامة المكان المميزة؛ وسيلة التنقل بين منازلنا، حتى البحر هنا تختلف لمسته على وجهي عن ذلك البحر الخاص بالسادة.

ينقلني به "حمو"؛ صياذنا الأصغر قائلًا: "تفضلي يا دكتورة".

نعم، فأهالي المنطقة يعلمون أنني درست التمريض، لكنهم لا يعلمون أنني تركته لأنه لا يُغني من جوع، من أجل شهرتي كمبرضة يغفرون لي مواعيد عودتي الغربية على وجه الخصوص في منطقة شعبية مثل هذه، إلى جانب أنني لا أتوانى عن تقديم الخدمات الطبية البسيطة لمن يطلبها.

أتجه لبيتي البسيط الأقرب لكوخ، أعرج قليلاً من جراء ضربات العجوز الصاخبة والأرض غير الممهدة، فالمكان جنة العشوائية الحقيقية.

أفتح الباب الأخضر الخاص بمنزلي - وللدقة، فهو يشبه معظم المنازل المجاورة - برفق، أملاً في أن تكون نائمة.

لكنها تُقابلني بعاصفة الترحيب المعتادة، فرحة مرحة بسيطة.

ابنتي "فوزية" ذات الخمس سنوات، المصابة بداء التأخر العقلي، "متلازمة داون" كما أخبرني ذلك الطبيب الشهير في "لوران" بعد أن كلفني كشفه أسبوعاً من عملي المقيت، سبعة أيام من المهانة وبيع لحمي حتى أعرض حبة قلبي على طبيب يعلم ما يفعله.

والنتيجة: لا علاج.

لا مدرسة.

لا تعليم.

لا شيء!

يبقى الحال على ما هو عليه، كل ما أستطيعه هو تسهيل حياتها قُدر المستطاع.

زد على ذلك أنها يتيمة الأب شهيد لقمة العيش الممزوجة بالقهر؛ الصياد الذي مات من جراء تعذيب كفيّله، ولا أستطيع أن أنطق أو أطالب بحقي طمعا في أن يلقي لنا بنفحة تحمينا من غدر الزمان، كما نصحني مندوب السفارة قائلا: "حكومتك لن تفعل شيئا، فارضي بالقضاء واقبلي المال".

أفقت من مرارة خواطري على جوع وحيدتي وهي تشد كيس بقايا ذل أمها الملوثة، فتركت لها ثمن لحمي لتقتات به، فليس لها ذنب فيما نحن فيه.

أما أنا، فتعاف نفسي طعاما ممزوجا بشهوة مشوّهة، فأتجه للحقّام لأغسل أوساخ المستأجر عن جسدي.

ألقي أسمالي على الأرض. أفتح ماسورة المياه الصدئة، تنهال على جسدي المكدود ثلوج على شكل ماء... عليك اللعنة أيتها "النؤة"، وعليك اللعنة أيها الفقير، وعليك اللعنة أيها الكفيل، وعليك اللعنة أيها العجوز.

تنهمر دموعي وتختلط بمياه طهارتي، هل هو شعورٌ بالذنب أم المهانة أم القهر؟ لا أعلم.

أخرج فأجد ملاكي قد نامت. أضعها على سريرنا المتهالك الوحيد محاذرة ألا يصدر صريره الذي يُوقظ الأموات.

أفترش سجادة الصلاة.

أكبر..

أقرأ ما أذكره..

أركع..

أرفع..

أسجد!

جبهتي تلامس الأرض، تسبقها غبراتي النادمة وابتهالاتي. أدعوه أن يغفر لي، وأكبر من ذلك وأزيد.

أشعر بإرهاق شديد، لا بد أن أقاوم، فيجب أن أعود لعملي. استغفرُك وأُمت
نفسي حين تذكّرت حيلتي على الرزق في صلاتي.

كالطبل في صدري قلبي يدق، تنفّسي يضمحل والدوار يُخالطني. ألم رهيب إلى
ذراعي وكتفي الأيسر يتصاعد. لا أقوى على القيام من سجودي.

فأستمر...

على جبيني العرقُ يحتشد ودمعاتي يمتزج، الرؤية تتشوش، الدنيا تُظلم.

الوعي ينزلق، الأزمة القلبية تقترب.. أعرفها من عملي السابق..

وحيدتي من بعدي.. أتذكّر!

حزني يتعظّم..

الموت يدنو!

فرصة أخيرة للنورا

سنة 2007

أسرع يا عم درويش بالله عليك؛ إننا نفقده..

صرخ بها طبيب سيارة الإسعاف الحكومية المرافق في السائق العجوز؛ الذي رد بصوت زاعق ليعلو فوق العاصفة الدائرة بالخارج:

- أحاول يا دكتور، لكن المطر شديد، والطريق زلق إلى حد الخطر.

- لا يهمني، أسرع... الحالة مُصيبة بهبوط حاد في الدورة الدموية نتيجة جرعة عالية من المخدر، والإمكانيات المتاحة في تلك السيارة الحكومية المتهالكة لا تساعدني، لا يهمني سوء حالة الطقس؛ لن تموت أولى حالاتي الميدانية في أول يوم لي!

يستجيب السائق ويضغط على دواسة الوقود حتى نهايتها فتتمايل السيارة بخطورة، لكنه ينجح في السيطرة عليها بالكاد، ويرد:

- الشبورة عالية، المشاحات لا تعمل، وأعمدة الإنارة مظلمة لا أرى الطريق بشكل واضح و...

غطت على صوته ضربة برق مهيبة أنارت الطريق لثوان، فخيل إليه وجود ظل لشخص ما أمامه مباشرة، فأدار عجلة القيادة إلى اليسار بحركة حادة للغاية صرخت معها مكابح السيارة، ولكنه لم ينجح في السيطرة عليها هذه المرة، ليدوي بعدها صوت نفير عال لسيارة نصف نقل مُحملة بألواح زجاجية عملاقة تأتي في الاتجاه المقابل، لا ينجح سائقها بدوره في السيطرة عليها بسبب المياه التي تغطي الأرض، لتصطدم بالإسعاف بمنتهى العنف، فتلف تلك الأخيرة حول محورها في نصف دائرة، وينهار بانها الخلفي الضعيف. ينجح الطبيب بمعجزة في التثبيت بالأجهزة المثبتة بالأرضية فلا يطير من مكانه، لكن النقالة لم تكن على نفس الدرجة من الحظ، فاندفعت مُحملة بالمريض شبه الميت ما بين الوعي والغيوبة.

لينفصل هو الأخر عنها بدوره وكأنما تباطأ العالم، لتخترق جسده ألواخ الزجاج، فيستفيق عقله دفعة واحدة، يشعر بكل شظية زجاج تمزق جسده، ويرى كل نقطة دماء، يتعاضم إدراكه فيستقبل كل لسعة ألم، كل كشطة، حكة، طعنة. وينحدر بسرعة نحو الموت الأكيد.

لكن العالم يتوقف بالكامل!

هذه المرة تعطل كل ما في المشهد متوقفًا في مجرى الزمن، كل حركة ماتت في منتصفها، كل خلايا جسده معلقة في الهواء، كل قطرات الدماء التي تتناثر منه متوقفة، كل شظايا الزجاج متطايرة لا تسقط وتُعاند الجاذبية، بل كل الموجودات تُعاند الجاذبية: الجسد، النقالة، الزجاج، حتى السيارات المتصادمة والنيرون نصف المشتعلة... الصوت نفسه توقف في نصف هزيم الرعد التابع للبرق الأول.

مع نصف صوت تكسر ونصف صدمة، كل شيء توقف... ثم صمت!

إلا شيئًا واحدًا.

للدقة.. شخص واحد، أو شبه شخص، ظل أو طيف غير واضح الملامح رغم الضوء الباقي من البرق المعلق في السماء وأضواء السيارات الثابتة، أسود بالكامل كأنه فراغ متحرك على هيئة رجل منتصب القامة، بدا للفصاح المعلق في الهواء مألوفًا بشكل ما لم يدركه في حينها.

يتحرك ذلك الطيف بهدوء غير مكثرت للحطام ولا الكارثة المتعطلة في الأثير، يُزيح شظايا الزجاج بيده فتتحرك بتناقل كأنها في الفضاء بلا جاذبية، يخترق قطرات المطر المعلقة فيصغرها إلى قطيرات أصغر، يتجاوز كل شيء نحو هدفه؛ الرجل شبه الجثة السابح في الفراغ.

يدرك الأخير بفريزة ما الخطر المبهم المقرب منه، فيشعر بوجل يستقر في أحشائه، يجاهد لتحريك أطرافه في الهواء المخملي بلا جدوى، كأنما شل بالكامل، يشعر بكل ما حوله، ولكنه عاجز عن التفاعل معه.

يصل إليه الطيف، يمد يده عبر الزجاج لتتلامس اليدان، هنا ينقلب كل شيء رأسًا على عقب، تتحرك كل المتوقفات من حوله: الدماء، شظايا الزجاج، النقالة،

البرق.. السيارات.. الضوء.

الكل؛ كل عناصر الكون عادت للعمل كأنها بُعثت للحياة من جديد إلا من اختلافين لا ثالث لهما: الأول هو المصاب الذي انفصل عن خريطة مسير باقي التفاصيل وتحرك ببطء مع توجيه خفي من يد الطيف ليقف بدوره إلى جواره، والثاني هو أن كل ما عداهما عاد للحركة، نعم، لكن بالعكس!

كأنما عادت عقارب الساعة للوراء؛ فالبرق ارتد إلى السماء، الزجاج أخذ في التماسك من جديد، حتى الشظايا التي استقرت في جسد المصاب خرجت منه بلا ألم وطارت صوب رفيقاتها لتلتحم معها متحولة إلى ألواح زجاجية من جديد، السيارات المتصادمة اعتدلت، كل شيء...!

كل شيء يعود إلى أصله بمعدل سرعة متزايد بدرجة مُخيفة، فتلاشت الحواجز بين التفاصيل وبدأت تلتحم وتندمج في خيوط ملونة عسيرة التبئين من سرعتها، التي تزايدت بدورها حتى تحولت الألوان إلى لون موحد!

الأبيض فقط.

كل ما في المكان والزمان.

الفراغ والأثير.

تحول إلى مساحة شاسعة من الأبيض اللانهائي.

إلا المصاب ورفيقه الظل الذي ما زال يتشبث بيده.

أفاق المصاب من ذهوله في متابعة ما يحدث، فتحسس أجزاء جسده فوجدها كلها سليمة، لا أثر لأي جروح، كلها التأمث كأنها لم تكن، جسده المهزول من جراء الإدمان عاد إلى مظهر صحي لم يكن عليه من سنين، التفت إلى الظل بصوت مُتهذج مُتقطع، قال:

كيف فعلت، ماذا.. كيف؟

أين أنا؟

من أنت؟

أجابه الظل - الذي بقي على سواده البهيم رغم البياض المحيط به من كل جانب
- بصوت مألوف بشكل غريب:

- مرحبًا يا نور...

- كيف تعرف اسمي؟!

- أنا أعرف عنك الكثير، أكثر مما تتخيل.

كزّر نور:

- من أنت؟

- لم يكن أوانٌ كشف ذلك بعد.

- متى يحين؟

أشار الظل بيده اليمنى إلى الفراغ، فتكونت صورة في اللاشيء، أقرب إلى بوابة
أو نافذة تطل على مشهد متحرك ما.

مشهد مألوف هو الآخر لنور، مألوف بشدة، يكاد يقسم إنه سبق وقد عاشه من
قبل بطريقة ما!

أجاب الظل على سؤال لم يُطرح:

- بالفعل لقد عشت هنا مسبقًا يا نور.

تقدم نور في حالة من الصدمة ليقترب من البوابة العجيبة، وانحنى للأمام
متطلعًا للتفاصيل التي تثير في نفسه مشاعر حنين غريبة، كأن مسامه نفسها
تسترجع تلك الذكريات.

أكمل الظل من وراء ظهره:

- أما سؤالك عنم أكون، فذلك سؤال تعرف إجابته بعد انتهاء رحلتك.

سأل نور دون أن يلتفت:

- أي رحلة؟!

- تلك...

ثم دفع الظل نور إلى الأمام داخل البوابة!

استمر نور في السقوط عبر الفجوة في فراغ أسود واسع، يرى البوابة السحرية تبعد عنه، يُطل منها عليه الظل الأسود وخلفيته البيضاء، زادت سرعة سقوطه حتى قاربت روحه على الانسحاب فشهق.

لكنها ارتدت إليه، ليجد نفسه في...

سنة 1990

شقة والديه القديمة، المكان الذي قضى فيه جل طفولته وقذرا لا بأس به من شبابه، دار بعينيه في الأرجاء متعجبا ليطالع ذكرياته متجسدة يعيشها ويشمها ويلمسها. التلفاز الملون ماركة لورد، اقترب منه يتحسس بكراته الدائرية الكبيرة وشاشته المحدبة التي ما زالت تُطلق الكهرباء الاستاتيكية حال ملامستها لأصابعه. رياه أصابعه، إنها أصابع طفل!

بل أصابعه هو أثناء فترة طفولته، بهلح تحسس جسده بالكامل.. إنه يلمسه، ولكنه ليس بجسده الذي يعرفه، عرج بسرعة إلى غرفة الشفرة بصالة المنزل، سحب كرسيًا من كراسيها الثمانية الثقيلة بصعوبة، وقف فوقه في مواجهة مرآة "البوفيه"، فور أن شاهد نفسه انتفض كمن مشه البرق، عاد يتحسس جسده مثل المجذوب غير مُصدق. إنه شعره الكثيف، عيناه البريقتان العسليتان، أنفه الدقيق، إنه جسده.. لكن وهو في سن الخامسة، لكن أيضًا بوغي وتفكير شخص بالغ في أوائل العشرينات!

أي عبث هذا؟!

أفاق من صدمته على صوت صراخ وبكاء من غرفة نوم أبيه وأمه.

أمه!

كم افتقدها!

ركض نحو الصوت بقدميه الصغيرتين ليجد أباه واقفاً، طويلًا مُخيفًا كما كان
دوماً، يصرخ بسباب مُتتالٍ وهو يلهث بوجه مُحترق، يمسك بسيجارة مُشتعلة بيده
اليسرى وبتلابيب ملابس أمه المنزلية بيده اليمنى.

وقف نور مشدوهاً وقد عادت إليه أسوأ ذكريات حياته!

اليوم الأول الذي أدرك فيه أن أباه يحتقر أمه ويضربها بلا توقّف. انتبه ويد أبيه
اليمنى تترك ملابس أمه، ترتفع وتصفعها على وجهها بقوة غاشمة طرحتها أرضاً،
لكنه لم يتوقف عند هذا الحد، بل استمر يلطم ويركل بلا توقّف وهو يخور مثل
الثور.

أخيّرًا حرك نور جسده الصغير واندفع يحول بين الضارب والمضروب، كل هفه
أن يذود عن أمه، فلم ينله إلا من الضرب جانبًا؛ فأصابته صفة بظهر اليد جرحت
شفته السفلى وقذفته بقوة متوسطة ليرتطم بالدولاب الخشبي العتيق.

توقف الأب للحظة ألقي فيها نظرةً على ولده المسجى أرضاً فلم يثر في نفسه أي
شفقة، فاستأنف لطم الأم وركلها وزادها من الضرب بيثًا بالصراخ والسباب:

- تلك آخر تربيتك الفاسدة، ولدك يحاول ضربي، عاملي "شجيع الشيما"، صحيح
ابن أمه!

تحامل نور على نفسه ونهض، لم يستطع تحمّل المشهد أكثر من ثوانٍ معدودة
فجرى من الغرفة.

جرى هربًا من الضرب والسباب الذي لاحق أذنيه.

"ابن أمه!"

لأذ بغرفته، أغلق بابها لعل الباب يمنع عنه الصوت المؤذي، لكن ما من فائدة.

"حقيرة".

تلقت نور حوله فتقع عيناه على دولابه الأزرق الجميل، فتحه ليختبئ به من شر
يُدركه ولا يقدر على مواجهته.

"تربية فاشلة من أم فاشلة".

ما زال الصوت يدوي في جنبات عقله مسفوماً يدمي قلبه، أدرك أن عينيه تبيكان بلا توقف، يبدو أن روح هذا الجسد هي لنور الصغير؛ فنور الكبير تبلدت روحه من كثرة ما رأى.

تجسد أمامه طيف أسود بالكامل، مُحدد الملامح، كأنما بشكل ما هو أشد سواداً من الظلام داخل الدولاب، تكلم بصوت خفيض مُبهم مألوف، لكن نور لا يسمعه بسبب صراخ الأب الذي يهز جنبات كيانه، فيضع كفيه على أذنيه ويضغط بقوة مؤلمة. ظل يضغط ويضغط حتى ساد الصمت ولم يغد يصله لا صوت أبية ولا الظل ولا أي صوت آخر.

لكن ذلك لم يمنح روحه التي شرخت الالتئام. فاستمر في البكاء بلا انقطاع حتى فقد الوعي.

سنة 1992

أفاق نور البالغ في جسد نور الطفل، ولكنه أكبر قليلاً، ليجد نفسه مطروذاً في الظرف المظلمة أمام باب شقته، يبكي مُمسكاً بشهادة مدرسية تُوضّح درجاته المتدنية مُحاطة بلون أحمر ثقيل، مع توصية شديدة اللهجة مُوقّعة من الناظر بالمتابعة مع الطفل والانتباه إليه وإلا سيكون مُضطراً لتسليم ملفه وإخبار ولي الأمر بضرورة البحث عن مدرسة أخرى!

المزيد من أصوات شجار مُتبادل بين الأم والأب يأتي من وراء الباب المغلق، اتهامات من طرف ومحاولات فاشلة للدفاع من الثاني.

لا تتوقف، لكن تتغير وتيرتها، يزداد الأب قسوة وانفعالاً ويخفت صوت الأم بالتدريج.

- أنت أم مهملة وزوجة فاشلة و ...

غظى على الأصوات تكة مزلاج الشقة المقابلة، فُتح الباب وخرج منه ولد أكبر من نور بما لا يقل عن خمس سنوات، ملامحه غريبة، أشقر الشعر فلون العينين، بداخلهما شرارات شقاوة شيطانية بطريقة ما، أغلق الباب خلفه ثم جلس إلى جوار نور على السلم البارد، ربت على كتفه برفق وسأله:

- ماذا حدث؟

لم يقف الأخير على الرد، فمد يده بالشهادة المدرسية المزخرفة بالأحمر، أمسكها الفتى بين أصابعه الثعبانية ليقرأ ما بين سطورها بصعوبة، ثم أعادها إلى نور وربت على كتفه مجدداً، فكانما كانت تلك إشارته. فانفجر في المزيد من البكاء المكبوت بلا توقف مع نشيج مستمر يعلو تارة وينخفض طوفاً على خلفية صوت الشجار الذي لا يهدأ. زاد تعلق الفتى بكتف نور، وأخذ يمسدها برفق، فهذا الصغير قليلاً، هنا مذ الفتى الطويل يده إليه قائلاً:

- أمير كرامة، مدرسة "...".

ردّ نور بصوت مبهور مبسوح من أثر البكاء وهو يبادله المصافحة:

- نور، نفس المدرسة للمصادفة.. لكنني أصغر منك.

ابتسم نور بإرهاق، لكن الابتسامة تم وأدها قبل أن تكتمل مع الصفعة المدوية القادمة من داخل شقتهم، أعقبها دوي سقوط جسم ثقيل على الأرض متبوعاً بعويل أمه الحاد. هنا ارتدّ إلى نور حزنه مضاعفاً فأكمل بكاءه وهو يدفن وجهه بين كفيه.

لف أمير ذراعيه حول نور واحتضنه بكامل قوته، لكنه لم يهدأ، واستمر في البكاء إلى حد ارتجاج جسده وتلطّيح كتف صديقه الجديد بالدموع، رغم ذلك لم يتركه، بل ظل يحرك كفيه الكبيرتين بالنسبة إلى نور، يمسد كفيه وأعلى ظهره بحنو غير بريء!

إلا أن نور استكان إلى لمسة حنان من أي ذكر، بالأخص مع قسوة أبيه المبالغ فيها، فهدأت ارتجاجات جسده بالتدريج وتثبت به هو الآخر.

هنا ظهر الطيف الأسود المألوف إياه يقبع في الطرف المقابل للطريقة، ويشير له بإصبعه بعلامة النفي!

لكن نور مزغ رأسه أكثر في حضن الفتى وأغمض عينيه.

سنة 1995

فتح نور عينيه ليجد نفسه مسحوبًا بيد أمير إلى داخل حمام المدرسة بعد ميعاد الانصراف، الأصوات هادئة، فلا أطفال ولا معلمين، فقط هما، تَلَفَّت أمير حوله في حذرٍ خشية أن يباغتهما شخص ما تأخر عن الرحيل مثلهما لأي سبب. تسفر نور للحظات شاعراً بالخطر، فتَلَفَّت له الآخر مُتسائلاً:

- لماذا توقفت؟

- ما الذي نفعه هنا؟

قلب أمير عينيه لأعلى في نفاذ صبر، وقال:

- ألم أخبرك من قبل؟ أنا وأنت نحتاج إلى احتضان بعضنا البعض، نحتاج إلى التقارب في حين يُجبرنا الجميع على الفراق، لا يفهمون أن كلاً منا يعوِّض الآخر عن الكثير، ولن يفهموا، وقد رأيت بنفسك ما حدث سابقاً أكثر من مرة عندما شاهدنا أحد المدرسين، فصرخ وتركنا في حوش المدرسة في ذروة شمس الظهيرة بالساعات كعقاب، وذلك اليوم بالأسبوع الماضي عندما لمخنا أبوك؛ حيث آتاه ما زالت مرسومةً بالكدمات المنتشرة على وجهك وأكبرها على عينك.

لما وجدة مُتردِّداً كرز وهو يقترب منه دون أن يترك يده، ثم احتضن كتفه وهو ينظر إلى عينيه:

- لن يفهمونا، إنهم في منتهى القسوة، لن يفهموا احتياجاتنا.. أنا وأنت فقط تكمل بعضنا بعضاً، والآن دعنا نُسرع قبل مرور بواب المدرسة ليتأكد من رحيل الجميع.

قالها ودفعه برفق إلى داخل الحمام الفارق في رائحة مُنظفات الأرضية ليعبراً المبوالة البيضاء إلى غمق الحمام. فتح أمير آخر باب جانبي يُفضي إلى مساحة ضيقة نسبياً بها قاعدة حمام فقط، أكمل دفعه برفق، ثم أغلق الباب بمنتهى البطء وبحذر كي لا يُصدر أي همسة. زيادة في التأمين أغلق المزلاج الصديء، والتفت لرفيقه بابتسامة منتصرة فاتحاً ذراعيه على اتساعهما قائلاً:

- الآن صرنا وحدنا، لن يرانا أحد. نستطيع احتضانا...

قاطعته نور بأن ارتدى بين ذراعيه وهو يبكي بلا توقُّف حتى بلَّت الدموع

قميضة المدرسي الأبيض. ربت أمير على ظهره ولم يقاطعه. تركه يحتضنه ويشم رائحة عرقه المتأرجح بين الطفولة والبلوغ ليعوض به رائحة أبيه. ولما هدا الشيخ بعض الشيء، أمسك بذقنه ورفع وجهه لتلتقي عيناها فجددا، ثم سأله وهو يمسح دموعه بباطن كفه:

- أعتقد أنني أستطيع إعطاءك حضنا أفضل من هذا، حضنا لن تنساه أبدا!

قفز التساؤل من عيني نور المغرورقتين، فأكمل أمير بنعومة:

- لو كان الجلد مكشوقا لأصبح الحزن أكثر قوة!

تحولت عينا الصغير إلى قلق مشوب بالفزع، فاستطرد أمير بسرعة مظهرنا:

- ألا تثق بي؟ لن أؤذيك أبدا؛ فأنا أحبك، أريد فقط راحتك. هيا اخلع قميصك وما تحته.

احتضنه أمير بقوة غير مؤلمة، وفرك نور نفسه بالكامل في الجسد العاري، تشفمه، تنفسه، تمنى لو ذاب في صدره.

هنا باعده أمير قليلا للوراء وسأل: "أعجبك؟".

هز الأخير رأسه بالإيجاب.

أكمل أمير بصوت مُتهدج ونفس مبحوح من الإثارة:

- ما رأيك أن نجعل الحزن أقوى عشر مرات على الأقل؟

لم يعترض هذه المرة، بل وافق مُنبهزا بإيماءة صامتة من رأسه.

- تعال.. سأجعلك تستمتع بحزن لن يعطيه لك رجل غيري. استبذ. واجه الحائط.

هنا تجسّد في ركن الحفام الضيق الظل الأسود يُشير بعصبية بعلامة النفي ويحاول التحدّث إليه.

سنة 2000

نهار مدرسي عادي، لكن الثنائي الآن هاربان من المدرسة في بيت أمير، لا يرتديان إلا ملابسهما الداخلية السفلى، وجسداهما غارقان في العزق البارد، اعتدل

أمير وقد ظهرت عليه علامات الفتوة: جسد مفتول، طول فارع، شاربه يغطي أعلى شفتيه. اعتدل لينزح نور من حضنه قليلاً، ويمد يده إلى أسفل الأريكة التي يضطجعان عليها ليخرج علبة سجائر أجنبية حمراء. سحب منها واحدة وأشعلها بقذاحة من ذات العلبة، ثم سحب نفساً عميقاً دل على احترافه التدخين من فترة ليست بالقصيرة.

انتفض نور عندما وصلت الرائحة إلى أنفه. فأعدت إليه ذكرى رائحة أبيه التي يشمئز منها، تلك التي ارتبطت معه دوماً بالألم، سأل متعجباً:

- هل تدخن؟

- وما الضرر في ذلك؟ أبوك يدخن من قبل ميلادك، وأبي يدخن هو الآخر؛ تعلمها في سفره الدائم.

نفث دفقة كبيرة من الدخان في وجه نور الذي سعل قليلاً، وأكمل وهو يشير بعلبة السجائر:

- هذا النوع هو المفضل عنده، يحضره معه عندما يأتي في إجازته السنوية بكميات كبيرة تكفيه فترة الشهر الذي يقضيه معنا، هذه العلبة بالتحديد سرقتها من مخزونه ولم يشعر بذلك؛ فلديه الكثير، حتى أمي تدخن هي الأخرى، لكنها تدخن نوعاً مختلفاً من السجائر الرفيعة بالنعناع، لم أحب مذاقها؛ تعلقها من "بيلة" ذلك النادي الفخم الذي تذهب إليه يومياً حتى المساء. لماذا يوقف الأمر عندي؟ أنا كبير مثلها ومن حقي التدخين.

نفث المزيد من السحب ثم مديده إلى رفيقه قائلاً:

- تجزب؟

تردد نور في قبول السجارة، فعاجله بكلمة السر:

- ألا تتقني بي؟

تناول منه السجارة المنتهية نصفها وسحب منها نفساً عميقاً، هيج حساسية صدره، فأخذ يسعل وسال الدمع من عينه واحمر خذاه، على ما يبدو أن المشهد أثار صاحبه فسحب منه السجارة وأطفاها في منفضة السجائر، ثم دفعه على

الأريكة ونام فوقه يُقبله بأنفاس مُزبدة.

أغمض نور عينيه في استسلام لم يسمح له حتى بملاحظة الطيف الواقف في طرف الحجرة البعيد عاقداً ذراعيه على صدره في اعتراض!

سنة 2001

قفزة جديدة في الزمان والمكان، حفام شقة نور المغلق عليه؛ جالسا محني الرأس على الأرض المتلجة عاري الجذع، قميصه فُلقي إلى جواره، أسفل عينيه أسود من قلة النوم وجسده ناحل قليلاً، يحاول سد أذنيه عن مشاحنات أبيه مع أمه المستمرة بالخارج، بين شفثيه سيجارة مشتعلة سرقها من علبة أبيه بعد أن كاد يجنّ من فرط الرغبة في التدخين.

لكن للأسف أمير مسافر إلى والده ليقضي معه الإجازة، لكم يفتقده؛ ظل يقارن بينه وبين قسوة أبيه معه، ضربه الدائم بالأيدي والأرجل، بل حتى بحزام البنطال. ضرب مُستمر على أتفه الأسباب.

نسيت مصباح الحفام مُضاء ليلاً؛ نصيبك صفة على وجهك!

اشتريت نوغا من السجائر غير الذي يُفضله؛ حسناً، تلك ركلة غير مُحددة الهدف إلى أي جزء من الجسد!

أضعت غرضاً من حقيبتك المدرسية وترغب في البديل؛ لا مشاكل، هذه قيمتها لسعتان إلى ثلاثٍ باستخدام شفاة الملابس البلاستيكية!

اعترضت، أو رددت عليه أثناء شتمه المستمر لك ولأمك؛ تلك تُعادل مجموعة مُشكلة من الركلات واللكمات، ولو تأوّهت يخلع حزامه ويظل يضرب حتى ينقطع نفسه، هنا ليس لك غير الانسحاب بكرامتك المبعثرة إلى أي مكان تختفي فيه من وجهه حتى تهدأ نوبة غضبه.

"أنا أكرهه".

اعترف بها نور لنفسه بدون تفكير، يكرهه من كل قلبه، يمقته ولا يطيق حتى البقاء معه في مكان واحد، يحاول إبقاء وقتهم المشترك في أقل حيز ممكن.

سرح خياله من جديد في رقيقه البعيد. شعر بالضييق والمزيد من النفور من أبيه.
لماذا يبقى هو ويرحل أمير؟

انتابته نوبة غضب مفاجئة شبيهة بنوبات أبيه، فقام يضرب بقبضته الحائط
مرات ومرات.

ظل يضرب حتى انتشر الألم في مفاصل يده، لكن ذلك الألم تبعه الشعور براحة
مفاجئة، هنا فهم أن تألمه البسيط فريح!

ربط بينه وبين السكون الذي بدأ يسري في قلبه، تلفت حوله باحثًا عن مصدر
للألم أخف ولا يسبب له الكسور لو تمادى في اللطم.

لمح موسى أبيه العتيق، تحرك ووقف أمام مرآة الحفام يتأمل موسى ذا الطراز
القديم الذي يُصر أبوه على استعماله نابذًا الأشكال المتجددة منه ذات النصال
المتعددة الاثنين أو الثلاثة، فذلك موسى ماركة لورد لونه أبيض بذراع بلاستيكي،
يغير له السن كل فترة عندما يثلم من كثرة الاستعمال، نصل واحد حاد بشفرة
مفردة.

أداره بين أصابعه وما زال صوت سباب أبيه المقزع يتنامى إلى مسامعه، فلم
يتردد. أمسكه بقوة بين أصابعه، لمس الحد المسنون فلسعه. يبدو أنه جديد. مد
ذراعه إلى الأمام أسفل المرفق بقليل حتى يصبح مغطى بالملابس طويلة الكم،
وبحركة حادة سريعة مزر النصل على سطح جلد ذراعه، ظهر جرح صغير انبثقت
الدماء منه فوزًا!

دماء حمراء قانية، وفاتنة.. ومريحة.

نعم.. مريحة جدًا!

فور نزول ذلك النُزْر القليل من ذراعه تصاعدت في نفسه راحة عظيمة مخلوطة
بنشوة تشبه تلك التي تحدث له عندما يحتضنه أمير من الخلف!

بذل الذراع وأمسك موسى باليد الأخرى، وعلى نفس الارتفاع كرر نفس الضربة،
وتصاعدت نفس النشوة داخله حتى ارتعش جسده وأغمض عينيه بقوة.

أغمضها فلم يز الطيف الأسود الجالس في مكانه السابق على الأرض مُنكس

"أنا ذاهبة إلى النادي، هل تحتاج إلى شيء من الخارج؟".

ترددت الجملة بصوت والدة أمير الناعم، فانتفض الأخير من فوق صاحبه وجلس معتدلاً على السرير في غرفته المظلمة المغلقة، يشير لنور بالصمت بإصبعه ويتنحى ليستعيد جلاء صوته، ثم ينفي احتياجه إلى أي شيء. يسود السكون للحظات حتى يسمعا صوت مفاتيح سيارتها يتبعه صدى باب الشقة الرئيسي يُفلق وخطواتها تدق الأرض مُبتعدة.

هنا تنفس كلاهما الصعداء، واعتدل نور يحتضن ظهر صاحبه الجالس مُطأطئ الرأس، ثم سأله بعد فترة سكوت:

- ألن تكمل؟!

هز الأخير رأسه نافية وهو يزفر في حنق:

- أخرجتني تلك الحمقاء من الحالة المزاجية العالية التي كنت فيها!

تركه نور والتف ليجلس إلى جواره وهو يريح رأسه على كتفه ويسأل من جديد:

- لماذا تكره والديك إلى ذلك الحد؟ لم أزهما يضربانك يوماً!

قام أمير بصلف تجاه المرأة الكبيرة التي تتوسط دولا ب ملبسه، يتأمل جسده العاري المشدود ويقوم ببعض الاستعراضات لعضلاته البارزة في محاولة للعودة إلى مزاج جيد، لكن يبدو أن ذلك لا يفيد، فيستدير مُجيباً بنقمة:

- ليتهما يفعلان!

كلاهما يعيش في وادٍ منفصل، ولا أحد يسأل عني، أبي كما تعلم مُسافر طوال العام ولا يحضر إلا في إجازة قصيرة يقضيها كلها نائفاً وحده أو فوق تلك الشمطاء التي تتفنن في إرضائه طوال فترة وجوده هنا، فيأكل أفضل الطعام ولا يفعل أي شيء، فقط يرتاح ويمارس معها كل أنواع الجنس.. لا تنظر إلي مثل الأبله هكذا؛ فهي تتعمد أن تتفنج وتعلي صوتها أثناء الممارسة فيصل إلى أذني رغم

بانينا المغلقين لثرضي فحولته؛ فهو مصدر الأموال الطائلة التي تنفقها بلا حساب طوال فترة غيابه. تنفق على ضحبة النادي والمجوهرات وقضات الشعر الجديدة، والصبغات وتغيير سيارتها السنوي و...

أشار بكفه المفتوحة ليقاطع نور قبل أن يعترض، وأكمل:

- وتنفق علي، لا أنكر ذلك، تنفق علي بكثافة وبلا حساب، لكني لا أحتاج إلى مالهما، بل أحتاج إليهما، إلى اهتمامهما.. إلى وجودهما في حياتي. أحتاج إلى أن يرباني موجودًا!

قالها وانهار جالسًا على السرير يدفن وجهه بين كفيه وينشج. قام إليه نور واحتضن رأسه وربت عليه بخنؤ بالغ، وقد بدأت عيناه في الترفق بالدمع بدوره.

قام أمير من جلسته يهز رأسه وينفض عنه لحظة الضعف التي أجبرته على البوح بكل ذلك إلى رفيقه، وهزت صورته القوية التي يُحاول الحفاظ عليها.

تصنع الحماس، ولكن عينيه اللتين ما زالتا محمزتين من البكاء فضحتاه، وقال:

- دعنا نستعد المزاج الجيد.

مد نور يده بتلقائية إلى علبة السجائر ليشعل له ولرفيقه منها، لكن الأخير أمسك بيده في منتصف الطريق، وقال:

- دعك من ألعوبة الأطفال تلك، فأنا لديّ لك مفاجأة.

قالها وقام صوب الدولاب، فتحه وجلس القرفصاء يُقلّب في حاجياته ليخرج حقيبة سفره الصغيرة وهو يحكي:

- جريتها أول مرة أثناء سفرتي الأخيرة إلى روما في الإجازة الصيفية الماضية، تعرفت على مجموعة من الشباب هناك سهرنا معًا، وأعطاني إياها أحدهم، ذهب بي إلى دنيا الخيال، وأعطتني قوة رهيبة، تعرفت هنا على بعض الزملاء في النادي وتجاوزنا أطراف الحديث لأجدهم يُجزبونها، ومن هنا وصلت إلى تاجر ثقة أحضر منه ما أشاء.

ارتسمت أفارات التعجب على ملامح نور، وإن خالطها التساؤل عن ماهية ذلك

الشيء الذي دفع أمير إلى كل ذلك الحماس، لكن كل مشاعره انطفأت وحل محلها الخوف والقلق عندما أخرج رفيقه كيسًا أصفر من كف اليد فمئلًا بمسحوق أبيض.

تغيرت لهجة أمير إلى صوت ناعم رقرق ثعباني مُغرٍ وهو يقول:

- لا تقلق، ستسافر إلى عوالم لم تعلم عنها أي شيء، ستدب الحياة في عروقك.

لكن نور لم يستجب، بل انكمش بعض الشيء للخلف وغطى جسده العاري بالملاءة الرقيقة البيضاء، غير أن الآخر لم يمهله فأكمل:

- قلت لك لا تقلق، ستقوي جسدك وستتحمل كل أنواع الألم، حتى ضربات أيبك معها لن تعني لك أي شيء!

هنا توقف نور عن العودة بجسده للوراء وتصلب، ثم سرح في معاركه اليومية مع أبيه، معاركه الخاسرة دومًا، أحس أمير ببوادر اقتناع فأجهز عليه بالقاضية وهو يمد يده بالكيس على طول ذراعه مبتسما:

- ألا تثق بي؟

هنا انهارت مقاومته وتقبل منه الكيس، لكن الأخير رفع ذراعه وعاد إلى الدولاب متراقضًا ليحضر ماصة عصير وموسى ثلم أثارته رؤيته في نفس نور شعورًا مهيبتًا، فتحسس ساعده ورفعته إلى عينه ليشاهد آثار التشريط المتتالية بطوله. قال له أمير دون أن ينظر وهو ينهمك في تحضير المسحوق على هيئة خطوط رفيعة متوازية:

- حتى ذراعك لن تحتاج إلى جرحها لتشفّر بالراحة.

قدم إليه هديته وأكمل:

- مع هذه لن تحتاج إلى شيء، لن تحتاج إلى العالم، ستستغني عن الجميع...

وضع طرف الماصة في أنف نور وأغلق الفتحة الأخرى، وأشار له أن يتنفس بعمق، واستطرد:

- ستستغني عن الجميع، إلا أنا طبعًا!

مع نهاية جملته وصل المسحوق إلى أعماق رأس نور فارتعش من النشوة لثوان

معدودة، بعدها عاد برأسه إلى الورا يضحك بهستيريا بلا سبب. غامت عيناه وأخذت جفونه تُغلق دون إرادة منه.

أغلقت على الطيف القابع في طرف الحجرة صامثًا.

سنة 2007

أفاق نور على ألم مُدوّ من صفة رنت على خده الأيمن فأسقطته أرضًا من عنفها. برؤية مشوشة من الدموع الحبيسة في مُقلتيه رفع وجهه إلى أبيه المنتصب أمامه في أعنف وأقوى صورته، لم تهذه السنون ولم يأكل الزمن من عنفوانه، فقط ترك بصمته بقليلٍ من التجاعيد حول الفم وشعر خالط سواده بياضه.

أخذ والده يُرغي ويزيد وينثر اللعاب من فمه وهو يصرخ:

- أيها الابن العاق الجاحد، بعد كل ما فعلته من أجلك، بعد أن ربيتك حتى أصبحت بغلاً تأكل العلف، بعد أن صرفت عليك دم قلبي، بعد أن اعتزلت النساء إكرامًا لذكري أمك، بعد كل هذا تسرقني أنا يا ابن الحرام؟!

استمر في تعنيف نور الساقط وهو يركله بلا توقف ويسبّه بكل الشتائم التي سمعها ولم يسمعها في حياته، وأكمل بين اللهاث والركلات:

- تحفّلت.. تحفّلت فشلك وانطواءك، تحفّلت مستواك التعليمي المنحدر وسقوطك المتكرر، وتحفّلت... حتى عندما حصلت في الثانوية على مجموع لا يُدخلك أي كلية محترمة، دفعت لك في جامعة خاصة لتصبح مهندسًا مرموقًا.

المصاريف الدراسية؛ هات يا أبي. حاضر.

الدروس الخصوصية؛ هات يا أبي. حاضر.

ملازم ومراجع؛ هات يا أبي. حاضر.

هات، هات، هات.

توقف للحظة التقط فيها أنفاسه وخلع حزام بنطاله بعينين تطلقان بالشّرر، ثم رفع ذراعه لأقصى مدى ليهوي بها باتجاه الجسد المكوم أمامه يحاول تفادي لسعات الحزام. ثم أكمل صارخًا:

- وبعد كل ذلك تسرقني أنا يا ابن الكلب؟! أنا يا ابن العاهر....

قاطعته كُف نور التي اندفعت من أسفل لثمسك يده مصحوبًا بصوته ليرد صريخه بصريخ:

- كفى، إلا أمي.. لن أسمح لك أن تسبها وهي ميتة مثلما كنت تفعل وهي حية.

قالها وشد باستماتة من قبضة يده الممسكة بساعد أبيه، الذي حاول سحب يده بقوة، لكن نور ركز كل ما يملك من إرادة الحياة في كفه الممسكة بالحزام، وأكمل وهو ينظر بمنتهى المقت لداخل عينيه:

- لن أسمح لك بعد أن قتلتها!

ارتعشت شفه الأب السفلى وبانث عليه علامات الصدمة، ثم تراخت يده إلى جواره، بل تراخى جسده بالكامل، وسقط جالسًا على أقرب مقعد وإلى جواره الحزام ترن مقدمته المعدنية على البلاط وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

هنا استأسد نور كأنما أحس أن كلمته قد أصابته في مقتل، فقال وهو يدور في الغرفة مثل أسد حبيس:

- نعم قتلتها، أنا رأيتك.. كنت مُختبئًا منك يوم ظهور نتيجة الثانوية العامة في دولا ب غرفة نومك! هه.. شاب بالغ في الثانوية يختبئ في دولا ب، تخيل!

ولما لم تجدني لثفرغ غضبك، جرجرتها وألقيتها في الغرفة مثل الجوال وأغلقت الباب، ثم ألقيت اللوم كله عليها كعادتك. تشاجرتما، سببتها، وضربتها فلم تنطق أو ترد عليك؛ علك تهدأ من تلقاء نفسك، لكنك تماديث في كل أنواع الضرب والركل والصفع و....

حاول الأب أن يقاطعه، لكن نور أشار بسبابته في غضب وأكمل دامغا كأنما يخشى لو صمت ألا يستطيع الكلام فجددًا:

- لا تحاول. قلت لك إنني رأيتك.. تركت فرجة بسيطة من باب الدولا ب حتى لا أختنق من نقص الهواء ورائحة النفطلين. رأيتك وأنت تصفعا الصفعة الأخيرة، أقوى صفعة رأيتك تضربها في حياتك. ما زال دونه يرن في أذني، كانت من القوة أن ألقتها لترتطم رقبها بحافة الكومود بمنتهى العنف وتنكسر.

نعم، لقد سمعتُ صوت فقرات رقبة أمي وهي تتحطم بيد أبي!
زفر للتخفيف من غضبه المكبوت بلا نتيجة، وصاح في وجه أبيه المذهول:
- عليك الصلاة ليل نهار لأنني لم أبلغ عنك الشرطة، وسكتُ، أتعرف لماذا سكتُ؟
لأنني كالعادة كنت خائفًا!
كنتُ خائفًا منك، لكن لا خوف بعد اليوم، ستسمعني وسأقول كل ما في نفسي.
نعم أنا أسرقك، وليس من اليوم فقط، فأنا لم أذهب إلى الكلية، ولا أحضر دروسنا
خصوصية، ولم أشتري يوماً مرجعًا، كل هذا المال أصرفه على المخدرات!
ارتسمت ملامح جنون لحظني في عيني نور وهو يكمل:
- ولدك الوحيد الذي ربيته بالكرباج، ربيته على القسوة والخوف، مُدمن يا
والدي...
مُدمن هيروين.

الضمت خيم على المكان بعد الجملة الأخيرة. الأب جالس في ذهول لا يقوى
حتى على الرد، عيناه مُتسعتان وفمه مفتوح، صدره يعلو ويهبط بحشجة خفيفة.
استدار نور ناحية باب الشقة وفتحه ليخرج، لكنه استدار ليلقي نظرة أخيرة على
أبيه وقال:

- لن تراني بعد اليوم.. ورغم أنني مُدمن وفاشل وراسب، لكن لا يُشرفني أن تكون
أبي!
قالها وأغلق الباب وراءه بهدوء عجيب، فلم يلمح الظل الذي تجسّد جالسًا بجوار
الأب!

سنة 2007 لاحقًا

استيقظ نور في حضان أمير عاريا في مكان لا يعرفه، استغرق لحظة ليتذكر أنه
فندق حقير نجمة واحدة في منطقة وسط البلد، استأجر به الشابان غرفة بعدما
طردتهما أم أمير عندما ضبطت ابنتها نائفا فوق صاحبه، وهما مُنهمكان في ممارسة

الجنس، سبتهما وقذفتها بكل ما طالته يداها من أثاث الفيلا الفخمة الجديدة التي كانوا قد اشتروها في التجمع الخامس ليقيموا فيها جميعا بأموال أبي أمير الذي مات مُفترَبًا!

لم يكف نور ورفيقه ما تبقي معهما من مال بعد شراء مخزون لا بأس به من الهيروين إلا هذا المكان القذر، لكن نور لم يهتم ما دام يحتفظ بحضن الرجل الوحيد الذي عطف عليه!

اعتدل من نومته ليجد أمير يُجهز جرعة مخدر صباحية كبيرة تعاطياها مغا وانتشيا، ثم استلقيا إلى جوار بعضهما البعض. رن هاتف أمير المحمول فرفعه إلى عينيه بتكاسل ليرى من المتصل. رد على المكالمة بتناقل، ثم انتفض وقد طار كل تأثير للبودرة من رأسه، ثم قال لرفيقه بصوت مرتبك وهو يرتدي ملابسه في عجلة:

- أنا خارج لأحضر شيئا نأكله، فنحن لم نتناول طعاما منذ الأمس!

جرى بعدها مسرغا إلى الخارج يصفق الباب وراءه بقوة، فلم يسمع نداء نور المتعجب، مرت فترة من الزمن ولم يغد الراحل، والقلق ينهش رفيقه من الداخل، حتى عاد الغائب متناقل الخطوات يتجنب نظرات نور الذي سأل:

- أقلقثني، أين كنت كل هذا؟! وأين الطعام؟

- لم أذهب لإحضار الطعام، تلك كانت أمي. أول مرة تتصل بي بعد رحيلنا، كانت في شقتنا القديمة تحضر بعض الحاجيات فوجدت تجمهزا أسفل المبنى وسيارة إسعاف.

صمت قليلا واستمر دون أن ينظر إلى نور:

- كانت متأكدة أنك معي، وتريدني أن أخبرك، أن والدك أصابته ذبحة صدرية ولم يجد من يُنقذه ف... فمات.

أنهى كلامه واقترب من صديقه يحتضن كنفه ليواسيه. لكنه ارتد متفاجئا عن نور الذي رفع رأسه وكل ملامحه تضحك. كل خلجة، كل شعرة، حتى عيناه كانتا تضحكان بصوت عالٍ مُجلجل!

استمر في وصلة الضحك فترة ليست بالقصيرة، ثم خاطب صديقه بهدوء:

- أريد جرعة قوية من المسحوق!

- لكن الـ...

- لقد أخذت جرعة اليوم، أعرف ... لكنني مُنتبش وأريد الاحتفال. اجعلها

مضاعفة؛ فالיום تحزرتُ من الذل!

سنة 2007

قراءة فجر اليوم التالي، يُجري أمير مكالمة تليفونية من هاتفه المحمول وهو

واقف في منطقة مهجورة من شوارع مصر القديمة:

- السلام عليكم، الإسعاف؟

.....

- أريد الإبلاغ عن شاب ميت!

.....

- أعتقد أنها جرعة مُخدر زائدة، العنوان "..."

.....

- من أنا؟

.....

- مجرد فاعل خيرا!

قالها وأغلق الخط، ثم ألقى نظرة أخيرة على نور الملقى في غيبوبة أقرب

للموت.. في مقلب القمامة!

قبل أن يستدير ويرحل!

سنة 2007، الوقت الحاضر.

أفاق وعي نور على جسده في الفراغ الأبيض الشاسع مرة أخرى. لا يشاركه فيه إلا الظل الأسود المألوف بشكل غريب، الذي تكلم بعد لحظة صمت مُريب بصوت مألوف هو الآخر لأذنيه:

- الآن انتهت الرحلة وعرفت ما فعلت. أمامك طريق جديد، لكن بلا اختيارات هذه المرة.

مع نهاية قوله تكوّنت بوابة أخرى في الفراغ تطل على ظلمة سرمدية بلا نهاية، بدأت تسحب جسّد نور إليها بقوة متسارعة، الذي التفت يسأل الظل وهو يحاول تثبيت قدميه الواهنتين في الأرض:

- أين أنا؟!

- كنت في البرزخ.

- أين سأذهب؟

- صدقًا.. لا أعلم!

- هل سأذهب إلى الجنة؟ أنا مظلوم!

- لو أنك استمعت لي طوال عمرك ربما.. أقول ربما كانت فرصتك أفضل بالتأكيد!

صرخ نور وجسده يقارب على الاختفاء التام في البوابة المظلمة:

- من أنت؟

أجابه الظل بهدوء وقد بدأ السواد يتلاشى من ملامحه تدريجيًا وتتشكل تفاصيل شخص بالغ مألوف بشدة لنور:

- أنا الذي رفضتني طوال عمرك، صممت أذنيك عني، حتى تضاءلت وقارب صوتي على التلاشي من أعماقك.

اتسعت عيننا نور وقد أدرك أخيرًا من هو الظل الذي أكمل بصوت أقرب للهمس:

- أنا فطرتك الطيبة التي رفضت سماعها، جانبك الصالح، ضميرك.. سقه كما

سئت.

وكان آخز ما سمعه نور قبل أن يختفي بالكامل في البوابة بصوته هو نفسه من صورته المكتملة أمامه التي كانت سابقًا الظل:

- أنا نورك يا نور، أنا هو أنت!

مُستثنى من الموت

يناير البارد ينخر برياحه المؤلمة في عظامي المسنة وأنا أجلس في الشارع، أقوم بواجب العزاء في آخر رجال شلة الجامعة، أتكؤم حول نفسي على طرف السرادق بجوار أحفاد المتوفى، فأبناؤه من المسنين يختلسون لحظات من الدفء بالداخل بعيدًا عن زمهرير الشتاء، يدوي صوت عبد الباسط عبد الصمد صاحب البحة المميزة في الأرجاء عبر مكبرات الصوت في المكان شبه الخاوي.

الطقس شديد البرودة، وكل معارف المرحوم إما قد سبقوه، وإما لا يقدرّون على تلك الجلسة بسبب الهرم. تنساب دموعي على وجنتي فلا تنزل بشكل مستقيم بسبب الأخاديد التي حفرها الزمن في وجهي. أسأل دموعي وهي تهطل؛ فأنا لا أدري أهي حزن على آخر الأصدقاء، أم على حالي أنا؟

كلهم سبقوني، كلهم ذهبوا وتركوني وحدي في ذلك العالم الموحش.

الأصدقاء.

الأهل.

المعارف.

كلهم بلا استثناء رحلوا، لم يتبقّ سواي أنا وهو حتى أمس، واليوم أنا وحدي.

لطالما كانت "مناقرتنا" الطفولية المعتادة- التي لا تتناسب مع سينا- تدور حول أننا تزاملنا في الجامعة، ولكنني أكبر منه بكثير، فكانت كلمته المفضلة:

"يا عجوز".

حتى وهو على فراش الموت أصفر الوجه عكر العينين، تتدلى ذراعه اليمنى المتفضنة إلى جواره، يتعلق بها أنبوب المحاليل المعلقة على عمود طويل، يفتح ويُغلق فمه بلا هدف، ويتمتم بكلمات غير مفهومة لا طائل منها ولا من المحاليل، كما أخبرني ولده الأكبر بالخارج قبل أن أدخل عليه. بقوة فجائية أمسك رُسغي المتفضن وقال هامسًا في ضعف:

- احك يا عجوز.

ابتسمت رغفا عني؛ فقد ألفتني الشلة كحكايتها الأوحده، فقرة رئيسية في جلساتنا على مقهى "معروف" الحقيق في وسط البلد بعد طلب المشاريب المعتادة ومعسل القص - لمن يحتمله- فالاطمئنان على الأحوال، ثم تأتي أهم فقرة وهي أن أحكي.

ولما لم يكن هناك في حياتي من جديد - وذلك هو الوضع في آخر عشرين عامًا - تصبح الحكاية عن ومن ذكرياتنا المشتركة التي يعلمونها أكثر مني، ولكنهم يحبون مهارتي في الكلام، وانفعالي أثناء تفاصيل الحكاية، فأعود إلى أيام الجامعة؛ أكثر فتراتنا الغابرة ثراء في الأحداث، وأنتقي إحدى طرائفنا التي كانت لا تنتهي، وأبدأ في الحكى.

في البداية أحكي بصوت مرتعش قليلاً بحكم السن وتلفس ذكريات الماضي الضبابية. أغمض عيني وأندمج وأنطلق، فأصول وأجول في الوصف، الأماكن والأشخاص، الملابس والأجواء، حتى الطقس، يحبون تجسيدي للذكريات القديمة على طريقتي. حتى إنهم لم يعودوا يعلقون على تحركي في الأحداث بتصرف كما كانوا في البداية، فقد اعتدت إضافة القليل من البهار والتوابل النابعة من خيالي في التفاصيل، التفاصيل نفسها أحزكها بخربة مظلقة. أخفي أشخاصاً وأضيف آخرين، أغير السنين وأضيف الالتواءات والمفاجآت على القصة، بل وتمايذيث أحياناً في غيبي بأن غيرت النهايات لأضفي وجهة نظري في عدالة القدر.

فكم من مرة زوجت ذلك من تلك التي كان يشتهيها، أكملت القصة من قريحتي التي لا تنضب ورسمت حياتهم وحوادثها، أما ذلك فقد ظلمه مديره، سرق مجهوده ونسبه لنفسه، أتدخل بفضيحة مدوية يتعرض لها الظالم تكسر شوكته ويتكالب عليه منافقوه السابقون، بل وأجعل مرؤوسه السابق يصبح رئيسه الجديد!

تلك خانت زوجها وهربت مع عشيقها، فيطردها الأخير بعد أن يسرقها، فتعود فتوسلة لزوجها الذي يطردها بدوره لتمارس البغاء حتى يقبض عليها وتفضح في كل مكان.

أظل هكذا؛ أميت وأحيي بلا شفقة، كأنهم شخصيات خيالية لا بشر أحياء بعضهم يجلس أمامي بالفعل يستمع منبهذا بعينين تلمعان بشغف قديم لقصة حياته كما لم

يرها من قبل.

لطالما عشقت أصدقاء نزق الشباب، ورق قلبي لحالهم- الذي لا يختلف كثيرًا عن
حالي- فكنت أحول مسار القمص دوماً إلى صالح أحدهم ممن جاز عليه الزمن.

فذلك الحطام البشري تركته زوجته التي استغلت ثقته ونقلت كل أملاكهم
المتواضعة باسمها، ثم ألقته إلى الشارع بلا مأوى، لا يستره من العراء إلا آخر أبنائه
الباقيين على أرض الوطن، بعدما هاجز بقيثهم ولحقتهم أهم لتبدأ حياتها من
جديد في بلاد الثلج والكرواسون. هنا أتدخل أنا وأعيد إلى وجهه بعضاً من البسمة
ولعينيهِ اللمعة، فأسهب في وصف حال زوجته في بلاد الفرنجة وانشغال باقي
الأبناء عنها، واستنزافهم لكل المال الذي تحضلت عليه بلا وجه حق، ولما أرى منه
استجابة وترقبًا للخط الدرامي الجديد أندمج في الحكي وأتأثر.

فأنفعل ويتهدج صوتي وتزأر أحمالي الصوتية في انفعال، واصفاً كيف غدروا بها
مثلما فعلت فألقوها في دار للمسنين مدعومة من الدولة، فزادت غمراً فوق غفر،
وتكالمت عليها الأمراض بسبب سوء المعاملة، وأدركت مع الوقت أنه ذنب ذلك
المسكين، فشارفت على الجنون بسبب هشاشتها النفسية، ويحاول المسنول عن
الدار الاتصال بذويها ليشرح لهم حالتها من السهاد والقذارة الشخصية ومناجاتها
ليلاً لزوجها المغدور صارخة:

- ذلك ذنبك يا حبيبي، اغفر لي.

هنا تتحول بسمة لقهقهة مُجلجلة تثلج صدري وكأنها تقول:

"أنت فهم، ولوجودك هدف!"

فأبتسم بدوري.. ولكن...

ولكن تنقضي الجلسة وينفض الخلان الواحد تلو الآخر حتى أبقى وحدي، فأرحل
إلى بيتي الخاوي، لا تُطاوعني نفسي حتى على تناول لقيمات محدودة. أذهب إلى
شرفة منزلي القديم مثلي، فأعد كوباً من الشاي مصحوباً بعود من النعناع الأخضر
المقطوف لتؤه من النباتات المختلفة التي تؤنثر وحدثي.

تشكيلة من النرجس والريحان مع القليل من النعناع، ووردة وحيدة.. مثلي.

ينتهي الكوب ولا يساهم في المزيد من السهر فأتجه لسريري مُتثاقلاً، أقدم
خطوة وأؤخر اثنتين، فأنا أعلم ما سأراه في منامي مثل كل ليلة!

أفرد جسدي كيفما اتفق.

أحاول التقلب يَفنة وَيَسرة.

فلا أستقر إلا على ظهري.

أحاول تبديل وضع ذراعي.

فلا أرتاح إلا مريغاً إياهما مثل أجدادي القدماء.

للأسف، نفس وضعية النوم التي أهرب منها نفسها، أغوص في فضاء سرمدي لا
أول له ولا آخر، حتى أستعيد وعيي ولا أستيقظ من نومي!

أستعيد وعيي على نفسي تُشاهدُ نفسي المسجاة على السرير في ذلك الوضع
الجنائزي الأقرب للتحنيط، مع تكرار الأمر على مدار السنوات وصلث إلى قناعة
مفادها أني لا أحلم، وأن النائم هو جسدي بلا روح، وأن المتفرج هي روحي بلا
جسد.

أتطلع لملامحي المتغضنة بهدوء، أتمغن في ملامح حفزها الدهر بروية، أشعر
بدموعي تُبلل وجهي، ألتفت لمدخل الحجرة، أحاول الفرار مثل كل يوم، بالطبع
أحاول الفرار من هذه الدنيا، فلم يعد لي فيها من أحد، يُمزقني الحنين لكل من
أحببتهم.. لكنهم ليسوا هنا.

بل هناك، على الضفة الأخرى، غير أنني لا أجد السباحة ولا حارس النهر يقبل بي
في قاربه.

كل ضحكاتي الآن هي ذكريات مع موتى.. أجتريها فلا أتذوق إلا المرار في فمي،
لنن أبقى؟

لنن أعيش؟

أليس موتى براحة؟

بالطبع؛ على الأقل أقضي باقي الأبدية بجوار الأحبة الراحلين.. لكن، فلكن، ولكن،

ثم لكن...

لكن الموت يأبى الاقتراب مني، ولا يقبل مناجاتي لحجز موعد قريب.

مع تكرار حلمي أمنت من داخلي أنني لو خرجت من تلك الغرفة فسأتحرر، ولن أعود لذلك الجسد البالي، وزاد إيماني بتلك القناعة الباب الموصد والنوافذ المدعمة بالحديد، وإلا فلماذا تُسجن روحي في غرفة بلا مخرج في حلم؟

أقترب من الباب وأنا فوِّق أن مزلاجه لن يستجيب مثل كل يوم، لكنني لن أمل من المحاولة، أدير المقبض.. فيلتف مع قبضة يدي ليفتح!

أرتد مصعوقًا للخلف، ل.. ل.. لقد توارب الباب عن فرجة أقل من سنتيمتر واحد، لكنه فُتح.

هل سأخرج أخيرًا؟

ألتفت إلى جسدي النائم بلا روح فودعًا برؤية تشوشها الدموع، أعود للباب. أضع يدي على المقبض من جديد، أهم بتوسيع فرجة الفرج.. لكنني أتردد وأتسفر! لماذا؟

لماذا تراو ذلك التساؤلات الآن؟

ألم تتم ذلك اليوم بدل الليلة ألقا؟

من بقي لك في تلك الحياة لتفكر حتى مجرد التفكير في المكوث لتلقاه؟

أدرك في لحظة صدق أنها الدنيا، تلك الحسناء اللعوب التي تُغريك بكل مفاتها حتى آخر قطرة من الكأس، فتتمسك بتأثير خمرها للنهاية، عندما يطفئ النادل الأنوار ويهزك بقليل من القسوة لتنصرف. عندها فقط تُدرك أن الميعاد فات، ومز الليل بلا فائدة.

أهز رأسي لأنفص سخر الدنيا منها؛ فالخلاص قريب ولا مجال للتراجع.

أفتح الباب بكل العزم حتى نهايته، وأهم بالعبور لكنني أتسفر من جديد عندما دوى السؤال في ذهني:

"لماذا الآن؟"

بقيت طويلًا أتمنى تلك اللحظة، أبحث عنها وأتقصى أثرها، بل توصلت إليها أن تأتي، لكنها لم تفعل وظلت تراوغ، فلماذا استسلمت أخيرًا؟

لا يهم.

أسمع صوتًا رقيقًا فحايذا يدوي في أذني فأفهم.

أخيرًا.

أفهم أن بقائي كان مهفًا حتى يرحل الجميع، فحكاياتي ساعدتهم على الصمود والعبور بسلام، ولما رحل الأخيز وجب علي اللحاق.

فلم أجد المستثنى من الموت.

أعبر الباب المفتوح فيغمرنى النور الساطع وأسمع.

رفعت قدمي اليمنى وألقيت بجسدي للأمام، في الفراغ، في النور الأبيض اللانهائي.

أراهم يرفعون أيديهم.

كل من سبقني.

يمدون يمانهم ليستقبلوني، وعلى وجوههم البيضاء بسمه أشد بيضاء.

تنتقل تلك البسمه لوجهي تقائيًا.

ويغمرنى النور الأبيض المريح بسكينة انتظرتها غفرا بأكمله.

الحياة في فنجان اسبريسو

"هاك ما طلبت، إن احتجت لمبيض يوجد على الطاولة".

قالها النادل الشاب بإنجليزية متواضعة مخلوطة بالكثير من الإيطالية والأكثر من ضيق الخلق وهو يلقي فنجان الاسبريسو أمامي بطريقة تفتقر لأدنى قواعد خدمة العميل، لكنني تفضيت عن ذلك لأتأمل الفنجان الذي تتصاعد منه الأبخرة ذات الرائحة النفاذة الشهيية، يغطي سطحه الرغوة التي أعشقها أكثر من القهوة نفسها لأنه في دين القهوة الرغوة والثمالة هم عصارة تركيز القهوة ومرارتها وبالتالي مكامن لذاتها!

تجاهلته فتجاهلني وانصرف معدلاً كمامة الوجه على أنفه ليستدير باتجاه المنصة، وهو يهم بتحضير طلب آخر لأحد سكان المقهى التقليدي الفاخر الذي يتوارد عليه البشر من كل صنف ولون بحثًا عن قهوتهم الجيدة.

كثيرًا ما أقصد المقاهي على اختلاف أنواعها في أماكن ترحالي المتعددة؛ لتناول القهوة والتخطيط لمشاريعي القادمة بهدوء بعيدًا عن صخب المنزل وضجيج الأطفال، صحيح أنني تعلمت تحضير قهوتي بنفس الكفاءة لكن ذلك الصمت عملة نادرة، عامل غير متاح إلا عند شرائه هنا مقابل فنجان قهوة بسعر زهيد في هذا المكان البعيد غير المطروق وهي صفقة رابحة.

الحقيقة أن ذلك ليس هو السبب الحقيقي، فأنا أتنقل بين المقاهي، أصنع قهوتي، أطلب قهوة في كل اجتماع عمل، كل زيارة عائلية، حتى إنني أسعى من بلدة لبلدة في بعض الأحيان بمجرد سماعي عن مكان تصنع فيه قهوة جيدة؛ فقط بحثًا عن فنجان القهوة المثالي!

تأملاتي في الفنجان أثارَت في نفسي الشجون، فأغلقت الحاسب المحمول وأمسكت صديقي المقرب الجديد المؤقت حتى ينتهي، ورشفت من الحافة الفخارية رشفة بسيطة على طرف اللسان مستمتعا بلذعة الرغوة المريرة معدومة السكر، حبست الرشفة على لساني ومررتها ببطء إلى باقي أجزاء فمي ثم انتابني

لحظة إدراك وتعجب معجونة بسؤال وجودي؛ كيف وصلت لهذا الحال من الإدمان!
الآن أحتسي القهوة بدون سكر، متوسطة التحميص، في فنجان لا في كوب
كرتوني، ولا بد أن تكون سوداء لا بياض فيها، أنا ... كيف؟

يشدني تيار السؤال فأسبح في بحور الذكريات إلى بداية تعرفي على ذلك
السائل الساحر الأسود، منذ ما يزيد عن الثلاثين عامًا أثناء دراسة الثانوية العامة،
لعنة كل منزل ورعب الآباء قبل الأبناء، فقدان التركيز مع ساعات المذاكرة
اللامتناهية المحاولات اللامجدية لمواكبة ساعات الدراسة الطويلة تليها الدروس
الخصوصية تتخللها تمارين السباحة، وهنا تظهر محفزة الأداء ومثيرة الهمم؛ أمي.
لتعرفني على معشوقة ظلت معي حتى الآن وربما إلى يوم أموت!

من أجل تعويض أملها في الدراسة الجامعية وبالتحديد الهندسة، الحلم الذي
طارده طويلًا حتى هرب منها بالزواج صغيرة فقامت بإسقاطه في ولدها الوحيد،
من أجله عرضت عليّ كوبًا من القهوة يدعم ذهني، رفضت بحزم لأنني كنت لا
أستسيغها ولا أتقبل طعمها؛ وذكرتها بالتجربة الوحيدة التي كانت من أيام الطفولة،
عندما حضر لبيتنا قريب من بعيد وجالس أبي لساعات طوال، توالى معها فناجين
القهوة التركية المحووجة بالحبهان فائحة الرائحة، ذهابًا وإيابًا من المطبخ للصالة
والعكس، وكانت جلسة الرجل مسلية لأقصى حد فهو يمتلك موهبة الحكي
الفطرية، فتجلس مشدوفاً تتابع أداءه المسرحي صعودًا وهبوطًا بانفعالات قلما
نجدها في نجوم الشاشة حاليًا. يحكي أخبار الأقارب ويتفنن في وصف المشاهد،
من سرق أرض من؟

فيرسم بيده حدودًا فاصلة وهمية بين الأراضي ويتقمص الشخوص ويبدل
بينهم، يغير انفعالات وجهه بلا مشاكل بل ونبرة صوته فكانما أشاهد عشرات
الأرواح وقد تقمصت جسدًا واحدًا.

الوقت صيف ولا مدرسة بالغد، وأنا مشدوه للقصاص التي لا تنتهي ولعلها كانت
أول مرة أكتشف فيها حبي للحكي، لكنني أنهار وجفني يرفض مخاصمة عيني
فينغلق بشكل تلقائي، لا سبيل أمامي سوى التشبه بالكبار، عندما عرضت أمي دوزا
جديدًا من قهوتها المخصوصة. رفعت يدي في تقليد مدرسي شهير مطالبنا بنصيب
من تلك الغنيمة التي يشتهيها الجميع، ارتسمت الضحكات على العيون والشفاه

وقال أبي -رحمه الله- أني لن أحتملها، لكني أصرت بعناد طفولي وفورة رجولة مهانة، فلست أقل منهم منزلة بين الرجال.

عرض أبي مترفقًا بحالي مشاركته رشفة من قهوته، التي أتت بالفعل ساخنة تتصاعد رائحتها تملأ الأنوف والحلوق، أمسك أبي الفنجان بعدما تركه هنية لتهدأ القهوة كما قال، تشممه مستعذبًا متمهلًا ثم ارتشف (وش) القهوة السميك فهو لا يفرط فيه مهما كان السبب، سألته عن السبب فتبادل هو وأمي نظرة حنونًا وقال: إنه السبب في زواجي بأمك، فقد وقعت في هوي أمك وقهوتها من قبل حتى أول لمسة على لساني.

ثم على مهل أنهى نصف الفنجان وقدمه لي، فتقدمت بدوري متهيبة أواخر القدم وأقدم الأخرى، نظرات الجميع منصبة نحوي تجلديني بسياط الدهشة وعدم التصديق. معها قررت حسم أمري وإثبات أني لها، فجرعت باقي الفنجان دفعة واحدة دون تذوق فاندفع السائل الأسود الحارق، يسلق لساني وجوفي بالحرارة، ويدمر براعم التذوق، ويقلب معدتي رأسًا على عقب، فلم أدر بنفسي إلا راکضًا للحمام لأفرغ روعي نفسها، تلاحقني ضحكات الكبار الأشبه بالرصاصات الساخرة من الطفل غير الناضج.

ذكرت أمي بتلك الواقعة المأساوية، فابتسمت بإشفاق وأعدت عرض الحل السحري، أول طريق الإدمان، قهوة سكر زيادة مخففة باللبن، أو للدقة والرافة بحالي كهاو؛ مصنوعة بالكامل باللبن ولا ماء فيها، وافقت على مضمض الحاجة ملحة والتركيز في انهيار والامتحانات على الأبواب، والأهم أمي تعتمد على نجاحي.

ثم أتى الكوب الضخم، وضعت حافة الكوب على طرف شفتي في توجس، أراقب أمي تراقبني بطرف عيني في أمل - كعادتها كلما صنعت لي شيئًا تحاول قراءة ملامحي لتستشف رد فعلي في صنعة يديها قبل أن تسمعه، خشية المجاملة - رشفة صغيرة متمهلة تنبهت معها براعم التذوق في لساني ليعود إلى وضعه الطبيعي بعدما كان منكمشًا في سقف حلقي، لم تكن سيئة؛ اللبن كسر حدة المرارة، مع عبور السائل الدافئ خط لساني المنيع، استبقيته قليلًا في فمي قبل أن أبتلع وبدأ حذري يتضاءل؛ فصعدت نكهة القهوة عبر فمي إلى أنفي واستقرت في

تلايف مخي، لا إراديا رفعت الكوب الشفاف أمام نظري وهزرت رأسي مستحسنا.
هنا انفرجت أسارير أُمي وتنفست الصعداء؛ فقد نجحت قهوتها في الاختبار، تلك
مسألة كرامة؛ لم يخلق بعد من يعترض على قهوة من يدها وكان لا بد من الانتصار
في حرب استرداد الكرامة تلك، حتى وإن لجأت للحيلة والاستعانة بجيوش من
اللبن والسكر الزائد.

مع الوقت أصبح كوب قهوة بالبن بمواصفتي الخاصة عادتي اليومية، بعد
أسابيع قبل الموعد الرسمي المعهود قمت من مذاكرتي مسرعا إلى أُمي في
المطبخ، وجدتها تشرع في تجهيز (الكنكة) الكبيرة وإخراج اللبن من الثلاجة،
ألقيت باقتراحي لها أن (تخف) يدها قليلاً في السكر؛ أريد استعذاب القهوة بشكل
أفضل.

هنا ارتسمت على وجهها ابتسامة مشفقة، وهزت رأسها بما فهمت بعد ذلك أنه
يعني (أهلاً بك في طريق الارجعة)، وبالفعل بدأت أتلمس طريقي في أنواع البن
المختلفة، سادة، محوج، جبهان، وسط، غامق، لكن الشرط الصارم ظل كما هو؛
اللبن.

مع اقتراب تحديد المصير المتمثل في امتحانات الثانوية تزايدت الجرعات
بالتدريج؛ فواحدة لم تعد تكفي، تزامن ذلك مع تقليل السكر واللبن في مقابل
علاقة عكسية متنافرة مع البن الذي استقر لفترة لا بأس بها مع المحوج وسط،
حتى أصبحت قهوتي في ليالي الامتحانات المسهدة يكاد لونها يقترب من الأسود
المشوب ببعض البياض المتناقص باطراد مع تناقص ساعات نومي واسوداد أسفل
عيني.

ورغم ليرات اللبن المغموس في كيلوات لا حصر لها من البن والسكر؛ تأتي
النتيجة بما لا تشتهي لا سفن ولا بحار، في يوم لن أنساه ما حييت؛ فقد كانت
الأوتار مشدودة منتظرة الخبر اليقين ووالدي أراد تلطيف الأجواء بعض الشيء،
فجهز لنا مفاجأة، ثلاث تذاكر لفيلم محمد هنيدي الجديد وقتها (بلية ودماغه
العالية).

ارتدينا ملابسنا وقبيل التحرك بدقائق معدودة تسقط عليا الصاعقة، محطة

آمال الهندسة إلى فتات، تجمدت الملامح وانهمرت الدموع من المقلات؛ فالصدمة التي كانت من نصيب أمي مزلزلة، الآمال العظيمة رحلت بلا رجعة، الطموحات لن تكون، لن يذهب ابنها للجامعة يحمل المسطرة الشهيرة كما أملت، ولن يعود منها يرتدي زي الطيار كما أمل أباه في قرارة نفسه.

كانت أقسى لحظات حياتي وأنا أراقبها من بعيد تقف في المطبخ أمام الموقد والكنكة على النار، تصل أصوات نهبتها إلى موضعي وأبي يتجاوزني ويحتضنها من الخلف، مقبلاً شعرها بغمغمات غير مفهومة لم أترجم منها إلا كلمة (أسف)...

فقد كان هو الذي يتأسف بالنيابة عني!

وكان يعلم أن بزواجه منها شارك في ابتعاد حلمها بالهندسة، وبفشلي أنا كان الحلم قد مات، فالحقيقة أنه كان يتأسف بالنيابة عن كلينا.

ولأول مرة في تاريخها تفور قهوة أمي، فلا ينتبه لها كلاهما ويتركها حتى ينطفئ الموقد من السائل البركاني ومعه تنطفئ الآمال في صدر أمي، يومها أقسمت ألا أخذلها وألا تفور قهوتها ثانية.

وصدقت في قسمي....

فقد كانت تلك هي آخر قهوة صنعتها في حياتها!

لم نذهب للسينما، نامت حزينة، ولم تستيقظ أبدا!

بعد تلك الخيبة الثقيلة التي تبعثها صدمة أثقل، أتى تنسيقي في محافظة الإسماعيلية؛ مما يضعنا أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن أقيم هناك في أي فندق متواضع، أو أن أركب حافلة (شرق الدلتا) يوميًا ذهابًا وإيابًا حتى أنتظم في محاضراتي، بما أنني مولود في أسرة متماسكة وأنا بطبعي أميل للعزلة وعدم مخالطة الآخرين، بالإضافة لصدمة وفاة أمي التي زلزلت كيان المنزل وقلبته رأسًا على عقب؛ كان الاختيار الأوقع هو الحج اليومي إلى الإسماعيلية ومنها، مع الإقامة في نزل الشباب عند الضرورة أيام الامتحانات.

غير أنني لم أقدر على مطاوعة أبي والانتظام في النصف الدراسي الأول من السنة، غلبني حزني، ومرارة نظرات أبي، لم يقلها ولا مرة واحدة لا بالتلميح ولا

بالتصريح، لكن نظراته كانت تقتلني، كانت تقول لي، أنت قتلتها!

لم أتعاف وأبدأ في التغلب على حزني إلا بعد الإقامة فترة لا بأس بها في كنف جدي والد أُمي، الذي احتضني وأزاح همي بأن ساعدني على القرب من الخالق، معه انتظمت في الصلاة، تعلمت صوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، تعلمت صدقة التبسم، والعمل في الدنيا، فهمت منه أن النجاح في الدنيا لا يعتمد على الدراسة فقط ولا الموهبة فقط، بل خليط منهما، بحث معي في تفاصيل حياتي حتى عثرنا معا على موهبتي الربانية؛ الخيال!

أمتلك خيالاً خصباً جامحاً، أصنع عوالم مختلفة داخل ذهني بلا مشاكل، أجد تركيب الحكايات لصنع قصص متماسكة، وكأنما وجد جدي في ذلك مراده ومهربي ونجدتي، انطلقنا سوياً لتعلم كل ما يخص الكتابة، مؤلفات عظماء الأدب الكلاسيكي العربي والمترجم، كتب تعليم فن الكتابة، النقاش حول رمزيات محفوظ وإنسانيات ديكنز، تعلمنا السرد وتفصيله و....

تقابلنا في الكثير ولم نفترق إلا في نقطة واحدة؛ قهوته!

لم أحب قهوته، حاول بكل السبل أن يضبط مقادير الخلطة لتطابق قهوة أُمي رحمها الله، رغم أنه من علمها صنعة القهوة إلا أنها ظلت فريدة من يدها.

وكان آخر ما أقنعني به، هو ضرورة إنهاء دراستي الجامعية قبل متابعة شغف الكتابة، فقررت العودة لبيت أبي والعودة للدراسة مع بدء نصف العام الدراسي الثاني.

ولما كانت المحاضرات تبدأ الساعة السابعة. فاستوجب ذلك مني ركوب أول ميعاد للحافلة في تمام الخامسة والربع مع زقزقة العصافير، للبعض لا يمثل ذلك أي مشكلة لكنني في الحقيقة كنت طوال حياتي وطواظا آدمياً؛ أعشق النوم النهاري والاستيقاظ المتأخر، ولا أتقن عملاً إلا في جوف الليل - كل ما كتبت تم بعد الساعة الرابعة فجراً على أنغام أم كلثوم الكلاسيكية - فكنت في تلك الأيام الدراسية أذهب إلى السرير بعد الثانية صباحاً ولكن ينطلق المنبه في الرابعة ليوقظني، لا أرى أمامي إلا ضلالات، ولا أجرؤ على إيقاظ أبي من أجل كوب القهوة باللبن - الأقل في الطعم من خاصة أُمي هو الآخر- وإلا فهو الويل والثبور وعظائم

وعليه ظهرت القهوة (التيك أواي) لأول مرة في حياتي، أمام موقف الحافلات في ميدان (التجنيد) بمصر الجديدة على الناحية الأخرى أسفل الكوبري، منصة صغيرة لا تنام لصنع القهوة والمشروبات الساخنة أدرك صاحبها (عم نصر) مبكراً عناء الطلبة فأصبح صديقهم.

مزدحمًا دومًا بمن هم على شاكلتي؛ من يأملون في الاستيقاظ والتنبه من أجل الرحلة التي تتجاوز الساعة بقليل، ويوم حافل من المحاضرات والملطفات والمشاحنات ثم العودة المنهكة مثل جندي مهزوم في معركة العلمين.

انضمت للتلاحم طمعًا في الهدف، كل منا يحاول العبور فوق رأس أخيه ويجاهر بطلبه، ولأن حجمي كان دومًا أضخم من أقراني فوجدت لنفسي متنفسًا بسهولة، اتسعت الصفوف لي وأنا أمد يدي بالنقود صائحًا:

قهوة باللبن ...

بعدها ساد الصمت، وكأنما توقفت العصافير عن الزقزقة والشباب عن المزاحمة؛ ليتطلعوا لذلك العملاق الذي يتعاطى قهوته الممزوجة باللبن مثل الأطفال، تركزت الأنظار نحوي فبدأت في تصيب العرق من منابت شعري وكل مسامي، تراقصت عينا في محجرهم وأدركت حجم المأساة التي فعلتها بنفسي، هل فقدت هيبتي من أول يوم، هل أصبحت (مسخة) الجامعة قبل حتى أن أصلها؟

ألا يكفي دخولي متأخرًا بعد أن تكونت الأحزاب والفرق و(الشلل)؟

فجأة هبط الوحي كما يقولون وتفتق الحل إلى ذهني المزدحم بالقصص، فزدت صوتي خشونة قائلاً:

بسرعة يا (عم نصر وحياتك)، حتى تلحق (الآنسة) الحافلة.

ثم أشرت بذراعي للخلف نحو مجموعة من البنات المجتمعات عن بعد بطريقة مبهمة، هنا عاد كل إلى شاغله بعد ما أدركوا أنني أحضر طلبًا لفتاتي الرقيقة التي تتناول قهوتها مخففة باللبن ولا أرغب لها مزاحمة الرعاع أمثالهم.

فظفرت ببغيتي، دون فقدان كرامتي، عدت محملاً بالكوب الكرتوني الأبيض

تتصاعد منه الأبخرة لذيدة الرائحة، أتسل خلف مبنى المحطة قرب الحدائق شبه المظلمة من الأشجار الكثيفة لأحتسي قهوتي في صمت وأنا أفكر في حالي، هل أظل هكذا كل يوم؟

لا بد من حل. وإلا عاجلاً أم آجلاً سيفتضح أمري، ويدرك شباب الدفعة أنني أصلاً خجول إلى حد الخفر، ولم أنجح بعد في التعرف على أي فتاة ما بالك بال...
لكن مع تذوقي للقهوة اكتشفت أن حل كل مشاكلي قد تم بضربة واحدة أو لنقل برشفة واحدة، فقد بصقتها من فوري وحسنت أمري للأبد سأشرب قهوتي بلا بن من الآن فصاعداً!

فعلى ما يبدو أن (عم نصر) قد أشفق على الفتاة التي تخيل أنها تخصني؛ وصنع لها كوباً من اللبن الممزوج بأقل القليل من القهوة، لأن من الواضح أن حظي العائر اختار الفتاة الوحيدة التي أشير إليها فيتصورها (العم ناصر) بنظرته الثاقبة تعاني بصورة ما من لين العظام. فأغدق عليها من منابع الكالسيوم ويا ليتته من مصدر طبيعي!

فقد صنعها بأسوأ نوع من الألبان التي ترفض الامتزاج بالقهوة كأنهما الزيت والماء؛ وهو اللبن البودرة السيئ الطعم وحيذاً فما بالك بالأفاعيل المحرمة التي يصنعها مع البن، أفقت من خواطري السارحة مع (عم ناصر) الملعون وقهوته الجهنمية؛ على الحافلة البرتقالية تتهادى أمامي مغادرة المحطة في طريقها إلى الإسماعيلية بعد ما ركبها كل التلاميذ تاركة إياي في حضرة الفراغ.

فلم يتبق سواي واللبن المطعم بالقهوة و...

(عم نصر).

تجاوزت سنين الجامعة بمعجزة ما، لم يكن ذهني حاضراً بالأرقام والمعادلات وحسابات الكفيل والدائن والمدين، بل كنت في ملكوت آخر، أشرد في قاعة المحاضرات وأنا أتخيل خلفية ذلك المحاضر الشاب ومدى الكفاح الدامي الذي خاضه ليحصل على مكانته، ذلك لو كنت أحبه!

أما لو كان العكس، فأتخيله شريفاً مريداً يحطم زملاءه، ويبلغ عن مرؤوسيه

ليصل إلى منصبه.

أشاهد ولذا وبنثا يختلسان لمسة أصابع وهما يتخيلان أن الأعين غفلت عنهما،
فأتخيل كيف تعرفا وكيف تحابا وكيف سيفترقان!

واظبت على العودة في عطلة نهاية الأسبوع إلى جدي فأقص عليه كل ما جاد
به ذهني، فيستمع ويعدل وينقح الحكايات الأدبية، لتصير قصصًا متماسكة تصلح
نواة لعمل أكبر.

حتى فاجاني يوما بهدية.

مسجل كاسيت بسيط يعمل بالشرائط، وطلب مني حكاية كل ما يتفتق له ذهني
في وقته أمام الجهاز دون الانتظار أو الاعتماد على الذاكرة، على أن أقوم بتفريغها
بشكل دوري باستخدام مجموعة من الأوراق والأقلام أهداني إياها بالمثل.

طرت فرحا بتلك الهدية وزادتنى قرينا منه، وساعدتنى على تجاوز دراسة لا
أحبها بمقدار كبير من التحمل، بل والاستمتاع!

شيء وحيد ظل ينغص حياتي، القهوة!

ظللت أبحث وأبحث طوال السنين، شربت من محلات فاخرة وأخرى متواضعة،
تعلمت صناعة قهوتي التركية، استخدمت أنواعا محلية وأخرى مستوردة، لكن
بلا فائدة مهما فعلت لم أجد ضالتي. طال بحثي، وخلال بحثي فقدت أبي بعد
مرض قصير، فانتقلت للحياة بالكامل مع جدي.

صارعت الحياة وصرعتني، محاولات نشر، إشارات بسيطة، مبيعات أبسط،
جوائز نقدية صغيرة، ثم أكبر فأكبر، كبوات، وصحوات، والقليل من الانتصارات...
لكن بلا قهوة حقيقية!

نصحتني أحد الأصدقاء مدمني القهوة مثلي بتجربة أنواع أخرى، فالحياة حافلة
بالممتع، والقهوة كالنساء كل منها له طعمه ورونقه و... مرارته!

توجهت للأمريكية، الفرنسية - الأصلية لا التي خدعنا طوال العمر باسمها -
حتى وصلت للإيطالية.

ارتحت قليلاً معها؛ فهي قصيرة، صغيرة، مشبعة، متمردة، وهي الأقرب لقلبي
حتى الآن مثلها مثل بنات جلدتها!

وإن كانت ما زالت تفتقد عنصرًا ما لا أدري مصدره أو تعريفه - القهوة لا النساء
الإيطاليات - ما زال ينقصها شيء غائب عن ذهني ولساني سنين وما زلت أفتقده.
تلفتُ حولي عندما وصلت لتلك النقطة وجدت نفسي قد تجاوزت الخمسين من
العمر!

ذهب جدي هو الآخر مع من ذهبوا، لكنني صرت مؤلف روايات معروف، حاصلًا
على العديد من الجوائز المحلية والإقليمية، تحولت بعض أعمالتي إلى دراما
تليفزيونية وأفلام، زرت عدة مهرجانات ومعارض كتب دولية، وفي كل دولة زرتها
بحث عن القهوة.

أول مكان أسأل عنه موظف استقبال أي فندق في أي مكان أزور:
من هو أفضل متخصص يصنع القهوة في مدينتكم؟

ظللت على ذلك الحال حتى قادتني الأقدار لإيطاليا نفسها، للاحتفاء بوصول
فيلم من تأليفي لترشيحات جائزة سينمائية هامة، صحيح أن ذلك إنجاز مهم لكن
السعادة الحقيقية كانت في وصولي أخيرًا إلى فخر مصنعي القهوة الشهيرة.

ورغم مشاكل القلب التي أصبحت أتعرض لها باستمرار، ورغم تحريمات الطبيب
المستمرة بعدم تناول القهوة والابتعاد عن الضغط العصبي - كيف لمن يخترع
ويتحكم في حيوات شخصياته ألا يتعرض للضغط العصبي-رغم كل ذلك كان
السؤال الأول المعتاد لفتاة الاستقبال عندما وصلت فينيسيا:

ما هو أفضل مكان يصنع القهوة في مدينتكم؟

قالت بإباء مخلوط بعجرفة وفخر ما معناه، أن بلادها هي مركز صناعة القهوة،
وأي مقهى سأجلس عليه سيتحفني بقهوة لم ولن أذوق مثلها قط!
ثم شدت على ميدان (سان ماركو) بالتحديد.

أعجبتني وأثار تعجبي ثقافتها واعتزازها بثقافتها، فانطلقت بلا هدف أتنقل في

المجهول بلا تطبيق تحديد المواقع، بلا انطباعات مسبقة، وبتوقعات مرتفعة. لا أحمل سوى الحاسب المحمول لعلني أحظى ببعض الإلهام من المكان المثير للخيال، أثار فضولي المقهى الذي أجلس عليه الآن، كل ما فيه يعبق برائحة التاريخ، موقعه المتطرف في أحد الشوارع الجانبية، المقاعد، الإضاءة، الحوائط، الأبواب، حتى ملابس النادل ضيق الخلق الذي طلبت منه قهوتي، كل تفصيلة هنا تحمل من التاريخ ما يفوق عمري بأعمار مضاعفة.

قهوتهم جيدة فعلاً، ليست ما أبحث عنه بالتأكيد، لكن ...

أفقت من خواطري علي يد النادل إياه تهزني!

اللعنة، تجاوزت عن قلة ذوقه في تلبية طلبي مسبقاً، لكن أن تصل إلى التلامس الجسدي فذلك أمر غير مسموح بالأخص لشخص مثلي.

ما هذا؟ لماذا تبدو عليه ملامح الجزع؟

لماذا يهزني بتلك القوة؟

لماذا يصيح بزملانه ويلتفون حولي؟

سأختنق من التزاحم وأنا الذي لا أطيق التلامس ... ما هذا؟ كيف سأختنق وأنا لا أتنفس أصلاً!

لهذا السبب يبدو النادل مرعوباً، الآن فهمت!

نعم، ويبدو أنني درت العالم، فتشت في كل مكان، حتى انتهى المطاف أخيراً، ولم أعتز على القهوة المثالية بعد.

قهوتك يا أمي.

سحور فاخر مع الرئيس

"دكتور عبد الحميد، حضرتك مدغؤ لسحور مع فخامة الرئيس بشكل شخصي".
أعيد تدوير الجملة واحتمالاتها في رأسي للمرة المائة وأنا أعيد ضبط ربطة
عنقي الحمراء للمرة الألف.

سحور مع الرئيس.. يا الله!

كم تمنيتها، بل حلمت بها مرات ومرات، ولم لا؟! فقد صعدت السلم العلمي حتى
منتهاه بشهادات علمية أعجز عن تذكرها، منها الماجستير، والدكتوراه الفخرية
تسلمتها من عدة هيئات دولية مرموقة، أما السلم الوظيفي الجامعي فقد اختصرته،
وركبث المصعد، بل الصاروخ الوظيفي فتكرر في سيرتي الذاتية الكثيز من كلمة
"الأصفر".

أصغر طالب ماجستير، حاصل على ماجستير، أصغر دكتوراه، مدرس مساعد،
أستاذ، رئيس قسم، حتى رئيس الجامعة الأصغر في تاريخ مصر، صرث محط أنظار
الجميع، زملاء حاقدين حاسدين متسلقين، طلبة متطلعين، رجال أعمال طامعين
في نجاح أبنائهم أو تعيينهم كفعيدين، وعلى رأسهم طبغا محظ أنظار السلطة!

ابتسمت ساخزا أمام المرأة عندما وصلت لتلك النقطة من ذكرياتي، حديثي
الساذج مع سوسن عبد المهيمن فاتنة الجامعة، عندما كنت طالبا، عن تواضل
الجهات الأمنية معي لبحث التعاون المستمر المستمر؛ ظاهزه الصداقة مع مسئول
الأمن، وباطنه نقل أخبار الزملاء والانتماءات والتحركات السياسية. كم ثارت
سوسن واعترضت على مجرد العرض، وكم سخرث من نفسي عندما فكرت مرتين
قبل قبول العرض!

وكم تأكدت أني على الدرب الصحيح عندما كنت المشرف على رسالة الدكتوراه
الخاصة بها بعدها بسنين!

بالطبع تركتني عندما قبلت، وبالطبع ترقيت عندما قبلت.

ترقيث بسرعة لا تُقاس بالمقاييس الوظيفية؛ فقد اكتشف موهبة فطرية في نفسي.

موهبة التلصص على أخبار الآخرين، ونقل ما يهم ويلزم إلى من يستفيد ويفيد،
Telegram:@mbooks90
وإن لم أجد ما يهم فلنستغل موهبة التأليف الكامنة؛ لنسج بعض خيوط الحكبات
الدرامية الكافية لإثارة ألعاب المسنول والاستفادة من الرضا السامي، ولا بأس من
إزاحة بعض العراقيين عن الطريق.

دكتور ماهر بطرس الأقدم والأكفأ والمرشح الأفضل لرئاسة القسم بعدما مات
الرئيس السابق، فيتناثر لسمعي شذرات، أو لنقل شائعات عن أقاربه المقيمين في
أمريكا وعلاقتهم بأجهزة الأمن هناك. الزميل الملتزم هو عضو في جماعة، لو كان
أكبر في السن فهو يتلقى تمويلاً من دول معينة تريد الإطاحة بنظام الحكم، ولو
كان أكثر ثراءً فهو بنفسه أحد الممولين!

هذا فاسد، ذلك مُرتشٍ، تلك على علاقة بسائقها، تلك على علاقة بتلميذها!

والكثير من هذا القبيل، الاختيارات لا محدودة، والقائمة لا تتوقف عند حد،
كل مهمني هي اختيار التفاصيل التي تدعم الخبر بدراسة ماضٍ وحاضر المرجو
إزاحته، ثم سبك مقادير الطبخة. صحيح أن المنقول أغلبه غير صحيح، لكن إثارة
الشبهات وحدها كافية لإزاحة الخصوم، بسبب التسلسل المتتالي للإشاعات، أسز
بأحدها لزميل مع التشديد على الكتمان وعدم البوح، ولخبك الحكاية أرسم بعض
نظرات مُتلفطة يتبعها ندم والمزيد من التأكيد على السرية، ولنتراجع بعدها ونترك
الأمور تأخذ مجراها المرسوم مسبقاً، حتى تعود إلى أذني محفلة بتفاصيل لم
أخترعها، وبالتالي تصل للمسئول رفيع المقام من عدة مصادر.

وأخيراً، إخبارية واحدة دقيقة مقابل كل عشر إخباريات ملفقة، كافية لتصديق
المسنول وضمن استمرار اتفاقيات التعاون المشترك.

والنتيجة قمة المجد، أصغر رئيس لأكبر جامعة حكومية.

لكن ينقصني شيء واحد.

السلطة.

السلطة نفسها، وها هي تأتي إلي اليوم لا ريب.

فما عرفته عن الرئيس من أوساط المقربين هو تدينه الشديد، واتخاذ القرارات المصيرية كلها بعد الصلاة، وأنا اليوم مدغو من قبل المؤسسة نفسها-أي منه هو شخصيا بالتبعية- للسحور المسبوق بصلاة التراويح، وتزامن ذلك مع تسريبات عن تعديل وزاري محدود فرتقب مفاجئ متوقع!

إذا فهي الوزارة.

الحلم القديم، كم تمنيثها منذ كنت شابا غريزا، وكم سخرت سوسن من حلمي هذا.

صحيح أنني ابتلعت قولها، ولكنه لم يستقر في بطني.. بل في عقلي، وكان هو أحد الدعائم التي استندت عليها عند انتقامي منها.

بالطبع انتقامي، فلم أكن لأتركها تستمر في سلام بعدما رفضتني وقبّلت الزواج من طالب آخر كان زميلنا يوما، سافرت بعدها معه لبلاد النفط، ثم عادت بعد سنين لتستأنف حلمها القديم في الحصول على درجة الدكتوراه، فحارثت واستغللت كل نفوذي لأصبح المشرف على رسالتها.

أه من نشوتي وهي تفتح باب مكنتي لثفاجأ بي أجلس أمامها وأخبرها بترحاب بالغ أن الدكتور المكلف بالإشراف على رسالتها اعتذر لأسباب تخصه وتوليت أنا تلك المهمة. النظرة التي ارتسمت على وجهها لا تقاس ولا تُوصف ولا تُقدر بثمن. حتى اعتقدت أن مُتعتني من مضاجعة سوسن نفسها لم تكن لتساوي تلك النظرة!

لكني هذات من روعها واستقبلتها كأحسن ما يكون، ذكّرتها بالعيش والملح والأيام الحلوة، مسح من داخلها كل خوف راودها بالألا تنجح بسبب الموقف القديم، استهزأت بما فات.. كنا شبابا طائشا وكلنا نُخطئ، الماضي مات بلا رجعة.

فارتسمت على وجهها بسمة ارتياح وتنفس الصعداء. شهور تكدح في الرسالة وأنا أدمعها بالمراجع وأدعمها معنويًا حتى قاربت على يوم المناقشة، ولكن قبل ذلك الحدث الجلل بسويغات تنامي إلى علم هيئة التدريس معلومات عن حادث مؤسف؛ فقد ألقى الأمن القبض عليها في بيتها بسبب وشاية مجهولة المصدر

ربطت بين إقامة زوجها في الخليج والجماعات المتشددة. من يُصدق هذا الهراء؟! حتى إن البعض يدعي انتماءها هي وزوجها لتنظيم سري ينادي بقلب نظام الخكم. اللعنة على أولاد الحرام!

يوم تمّ المراد وحدث ما حدث شعرتُ بنشوة لا تُوصف، كأنما قد صغرتُ عشرات السنوات دفعة واحدة، حتى إنني طلبت المومس المفضلة عندي، وعندما أتت التهمتها ثلاث مرات متتالية بمنتهى العنفوان، فاعتقدتُ أنني تناولتُ منشطاً ما، ولكن ما لا تعلمه بنت الحرام أن تخيلي لنظرة الانكسار في عيني سوسن كان أقوى من أقوى مقوٍ جنسي في التاريخ.

كم أتمنى يا سوسن أن يصل إلى مسامعك في مكانك الذي أجهله الآن خبر تقلدي منصب وزير. هنا يكون الانتقام أسطورياً كاملاً.

تضاءلت البسمةُ بعض الشيء على وجهي المرتسم في المرأة عندما تذكرتُ أنني لسْتُ المدعو الوحيد لذلك الحدث الجلل؛ فقد أطلقتُ كافة قدرات شبكة علاقاتي اللامحدودة لمعرفة إجابة سؤالين: تأكيد سبب الدعوة؟ ومن تفتت دعوته غيري؟

لكن كما تمّ التشديد علي في المكالمة بتوخي الحيطة وكتمان الأمر لدواعٍ أمنية، فقد تمّ التشديد على باقي المدعوين بالمثل. بسابق خبرتي في التعامل مع تلك الجهات أعلم أنهم لا يمزحون في تلك الأمور، فلو طلبوا الكتمان وعدم إخبار مخلوق فلا بد من الانصياع؛ لأنهم لو علموا - وسيعلمون - فذلك يهدد الأمر بالكامل، وقد ينسفه من جذوره.

لكني علاقاتي على مدار السنين لم تُخيب رجائي، فعلمتُ أن الدعوة شملت غيري. لم أنجح في معرفة العدد، لكن تأكدتُ من شخصين بالتحديد، ومن خلال اسميهما وتحريباتي علمت أن ظني بموضوع الوزارة أقرب للصواب. فكلاهما يماثلني بالمكانة الوظيفية، شخصيات مرموقة مجتمعيًا، ولها ثقلها في الشأن السياسي، بل إن أحدهما عضو فعال في الحزب الرسمي للدولة، لكنه لا يُمثل خطورة حقيقية، فلديه في تاريخه زلّة سابقة عن علاقة قديمة بإحدى السكرتيرات في شركته الضخمة للمقاولات تم تداركها وذفت في طي الكتمان، غير أن السنين علّمتني مهارة نبش القبور وإخراج الكنوز فأستطيع استغلالها

الأخر هو المشكلة الحقيقية. رجل محترم، تاريخ ناصع البياض لا تشوبه شائبة، سمعة ممتازة، مكانة اجتماعية وعلمية ذائعة الصيت، لبق وسبق له التعاون مع الأمم المتحدة بسجل مشرف، باختصار المرشح المثالي.

رهاني الوحيد لكسب المعركة هو مقابلة الرجل الكبير أولاً، طبقاً لحساسية المنصب المعروض، فلا بد للرئيس من استقبالننا كل على حدة، على الأقل لخمس دقائق، حتى يحسم القرار النهائي، لو نجحت في الدخول قبل الآخرين فأنا أضمن الفوز.

سر تلك الثقة أنني قد قمت بواجبي المنزلي على أحسن وجه، من بعد تلك المكالمة انطلقت أدرس تاريخ الرئيس كاملاً، منذ كان في الكلية الحربية بالتفصيل، بل صنعت العديد من الملخصات لأهم منجزات حياته قبل السلطة. ذهبت لمنطقة سكنه القديمة، تعرفت على معالمها وصنعت ذكريات زائفة مشتركة في نفس الأماكن. أطلقت كافة قدراتي الخاصة لأصل للفقرين منه حتى أعلم طباعه، هل يحب المستمع الجيد أم المحاور؟

يريد أفكاراً أم السمع والطاعة؟ يحب لقب فخامة الرئيس أم الزعيم؟

حسنًا، حسن فكاهته عالٍ. فرتبت في ذهني بعض الدعايات الخفيفة المناسبة لجلال الموقف لشذيب جليد ورهبة اللقاء، ولا تكسر مهابته، وتترك انطباعاً هزلياً عني.

زبيبة الصلاة. تلك كانت خدعة صعبة ومؤلمة؛ لأنني اضطررت لإصاق جبهتي بالساعات إلى ورقة صنفرة حائط خشنة.

طريقة قاسية؟

نعم، أتعرف، لكنها الطريقة الأسرع لاكتساب تلك السمعة المميزة التي تُضفي الجلال المتلائم مع الموقف المتشابه مع جبهة الزعيم.

أما جوهرة التاج، والدليل الدامغ على عقليتي التحليلية الفذة، فكانت ألوانه المفضلة. درست كافة خطبه ولقاءاته التليفزيونية، جمعت لقطات ثابتة ومتحركة

له. استخلصت منها معلومات شتى وضعتها في جداول إحصائية على الكمبيوتر، لأخرج بنتائج محددة ساعدتني على اختيار ألوان بذلتي لتتناسب مع ذوقه، واشتربتها من نفس الماركات العالمية التي يُفضلها، بل اشتريت حذاء خاضاً نعله ضئيل لا يكاد يتجاوز الملي مترات القليلة حتى لا أبدو أطول منه قامه فأتير حساسية قديمة لديه عن مشيته التي تأثرت بعض الشيء بإصابة قديمة ناجمة عن مناورة عسكرية إبان شبابه، فأصبح يعرج بعض الشيء بشكل غير ملحوظ إلا للمدقق مثلي.

و....

قطع تسلسل أفكارى رنينٌ هاتفي المحمول برقيم محجوب، فأقلت قلبي دقة. لقد وصلوا، أخيرًا حان الموعد المرتقب. وبالفعل عندما أجبث أخبرني المتحدث أن السيارة تنتظرني أسفل الفيلا لتنقلني لمكان التجمّع.

التجمّع!

تعبير غريب، لكنني أزحته عن ذهني وأكملت الرتوش النهائية على مظهري؛ برشة كثيفة من عطر ثقيل غربي مخلوط بعود عربي يُفضله سيادته منذ كان مُلحقًا عسكريًا في سفارتنا بإحدى دول الخليج، ثم نزلت.

خرجت من المصعد لأجد أوائل البشارات؛ رجالًا عملاقًا مفتول العضلات تحت بذلة سوداء تكاد تتشقق من كُنلته الجسدية مُقطب الجبين يقف مستنذاً على سيارة سوداء بزجاج معتم. ما إن لمحني حتى انحنى ليفتح بابها الخلفي، أكاد أقسم إن لوحاتها تحمل أرقامًا خاصة.

تهلّل وجهي مع تقدّمي نحوه بنطاء مُتعفد حتى لا تنفضح لهفتي. بالطبع؛ فتلك هي مظاهر المنصب الجديد: الحراسة الخاصة التي ستتضاعف فور تسلّمي المنصب بشكل رسمي بلا شك. لكنني تماكنت رباطة جأشي وثبتّ ملامح باهتة على وجهي لثخفي إثارتي، ثم ألقيت عليه التحية وأنا أتحرك لأركب بتؤدة من دون أن تتلاقى عيناى مع عينيه.

- مساء الخير يا ابني، هل سنتجه إلى مكان فخامته مباشرة؟

- مساء النور معاليك، لا، مكان التجمع أولاً.

قالها بنبرة فحايدة لا تحمل أي انفعال، لكنني لم أنتبه للإجابة قدر توقفي عند كلمة "معاليك" التي رقص قلبي لها طرباً، وقلت لنفسني وقد ارتسمت على شفتي ابتسامة راحة فشلت في إخفائها: "والله وبقيت معالي يا عبود".

لكنني سرعان ما لملث أطراف البهجة من ملامحي، واستويث على المقعد الخلفي شديد الضخامة والفخامة، وتمتمت بنبرة محايدة بدوري وأنا أشيح بطريقة أصحاب المناصب العليا وهم يتواضعون مع خدمهم:

- توكلنا على الله.

وبالفعل؛ تحركت العربة بلا أي صوت يُذكر بسرعة متوسطة في طريق لم أعده انتباهاً، فقد استبذت برأسي الأفكار مرة أخرى.

أعدتُ تذوق كلمة "معاليك" في ذهني عشرات المرات، يا لها من كلمة فخمة لها وقع يملأ النفس بالحبور. تبادرَ إلى ذهني أن الرجل لن ينطقها هكذا على سبيل اللغو. لا بد أنه يعلم بطريقة ما أنني مرشح للوزارة، فبالتأكيد رغم تكتم تلك المؤسسة، فهي بالنهاية مصلحة حكومية، صحيح أن السرية تأتي بالمقام الأول، لكن ذلك لا يمنع نميمة لسكرتيرة رأت أمراً مكتيباً ما مع صديقة من إدارة أخرى أثناء لحظات خاطفة مع فنجان القهوة، بعده نقلت تلك الصديقة الخبر لموظف ما ترتاح للحديث معه؛ فأخبر بدوره قريبه العامل في قسم بوفيه الحراسات الذي توذد لذلك الوحش الآدمي القابع في المقعد الأمامي. نفس الكلام كل مرة، طالما خرج السر من حيز الشخصين لم يعد سراً، حتى لو شذدت وأقسمت أغلظ الأيفان.

صحيح أن تلك التسريبات كانت طريقتي لأسرار ومكائد لا تُعد ولا تُحصى، لكنه تسبب حقيقي، غير أنني بكل تأكيد قادر على منع تلك المهازل في وزارتي المرتقبة. لن أخذل "الراجل الكبير". أعلم أن ذلك هو مصيري، اختبار مستمر يتيح له التأكد من دقة اختياره ومدى صلاحيتي للاستمرار في المنصب، بالطبع الاستمرار؛ فأنا لم أدخل الملعب لأخرج مع أول تغيير في التشكيل.

لقد أتيت لأبقى!

وسأحارب ما بقي لي من العمر نحو هدف أسمى، وهو الموت وأنا معالي الوزير
عبد الحميد خليل، فقط معالي الوزير، لا الوزير الأسبق، ولا حتى الوزير السابق!

ربما مع المزيد من المثابرة والطاعة المطغمة بالعلاقات التي أجيد صنعها بمنتهاى
السهولة؛ أن أنجح في المزيد من الترقى وأصل إلى المركز قبل النهائي، المركز الذي
سيذكر في كتب التاريخ: معالي السيد رئيس الوزراء!

يااه على اللذة والقشعريرة التي انتفض لها جسدي من فوره، نشوة تقارب
الرعشة الجنسية، بالطبع؛ فمن الأحمق الذي يفضّل جسد امرأة ولو كانت ملكة
جمال الكون على منصب مثل هذا! منصب يتحكّم في مصائر البلاد والعباد، يقبض
على مقادير الناس وأقواتهم، بل قدر يحييهم ويميتهم!

السلطة يا عبد الحميد هي النشوة الحقيقية. المتعة التي لا تستمر ثواني معدودة
مثل النساء، بل تتجدد كل يوم وكل ساعة وكل لحظة.

بالطبع. هل تكذب صفوي اليوم؟

إذا فلنفرض ضريبة جديدة، وليعان الجميع مثلي.

صحوث رائق المزاج؟

فلنأمر بزيادة المعاشات مائة جنيه كاملة، علنا نرفع المعاناة عن أمهاتنا وآبائنا
المواطنين الفقراء.

هزم فريق البلاد في مباراة مع دولة مجاورة، لماذا لا نهذب بثقطع العلاقات
وسخب السفير؟

آاه أنا وأنا فقط الأمر الناه... بالطبع بعد فخامته.

وبالحديث عن فخامته، فما المانع من تخيل حدث ما؛ انقلاب أو ثورة مثلا يطاح
فيها به؟

لا بد أني سأقرأ خريطة اللعب مبكزا كعادتي وأنضم للجانب الراجح، فأتحوّر إلى
أيقونة ثورية كانت تختبئ في أحضان الباطل لتهزمه بعدما كنت رمزًا من رموز
الحكم.

وبعدما تستقر الأمور، وبقليل من الدعاية التي أجيدها هي الأخرى، أقفز القفزة الأوسع، وتتحول كلمة "معالي الوزير" إلى فخامة الرئيس...

أنقذني صوت الوحش إياه من شلال أفكارى المتدفق المثير للمتعة عندما قال وهو يهبط ليفتح لي باب السيارة الخلفي:

- وصلنا.

الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

أجلس على مقعدي الكبير بغرفة نومي عاجزاً عن استيعاب ما حدث أو إعادة تدويره في رأسي، لا أستطيع فهم ما كان على الطريقة الصحيحة، ربما لو أعدت تذكر تلك السويغات الماضية لنجحت في الفهم.

ولكن التذكر وما أمز من ذلك التذكر، طعمه في حلقي مر كالعلقم.

ما إن نزلت من السيارة الفخمة إياها، حتى وجدت مجموعة من الحافلات الخاصة بالرحلات أمامي، يتجمهر حولها مئاث من الرجال والنساء بكامل الهندام والتأنق. يتزاحمون على الركوب كأنما تُوزع داخلها الأموال بالمجان!

قامات علمية واجتماعية وتعليمية تهتز لها جنبات الحياة السياسية في مصر، وتمتلئ بأخبارهم الصحف.

هل هذا الأشيب الذي يدفع السيدة البدينة أمامه لتصعد الحافلة بكل صفاقة هو الأستاذ دكتور شاهين عبد البر خبير القانون بذاته؟

اللجنة! أصلاً السيدة التي يدفعها هي واحدة من أهم محاور الحركة الثقافية في منطقة وسط البلد.

ما الذي يحدث هنا؟

أهو يوم الحشر المصغر؟

هل كل هؤلاء يطمحون لمقابلة فخامته؟ لو كان تجلياً جديداً لأحد الأنبياء أو الأولياء ما تقاتلوا بتلك الفجاجة والسفور!

فوقفت مشدوها أراقب ما يحدث لتوان أو دقائق أعجز عن تذكرها.

أفقت فالتفت للوحش الأدمي الذي أتى بي هنا لأستفسر فلم أجده.. رحل.

رحل وتركني في تلك المأساة الإغريقية الجديرة بهوميروس.

لم أقدر على الانضمام للصراع من أجل البقاء، ولم أقدر على البقاء بعيدا عن الصراع، شئت الخلايا الرمادية في عقلي بالكامل.

لكنني لم أبق على ذلك الوضع طويلاً، فقد تدخل مجموعة من الثيران يطابقون من أوصلني لهذا في كل شيء: الملابس والحجم، حتى الملامح أكاد أقسم إنها متشابهة، لكن لم تكن متطابقة؛ كأنما تم استنساخهم في مصنع لآلات الدمار البشري. تدخلوا ليعيدوا النظام لتلك المجموعة الغوغائية من البشر.

بكل حزم وحسم والكثير من الغلظة، في ثوان معدودة نجحوا في إعادة ترتيب الصفوف وتنظيم عملية الصعود للحافلات. انتظرت قليلاً حتى خف الزحام وتوجهت لأحدهم. توسمت فيه بعض الأدمية وسألته عن السحور المرتقب مع فخامته. فأكد أنني في المكان الصحيح.

أخذت أضرب أحماشا في أسداس، الدعوة وصلت لي من مؤسسته، نعم، ولكنها تحمل أمراً مباشراً مغلفاً بصيغة دعوة، إذا فلا مجال للانسحاب بما تبقى من الكرامة، وحتى إن حدث فلا أملك وسيلة تُعيدني من هذا المكان الذي أجهله.

فعمدت العزم على المضي قدماً في ذلك الأمر حتى الثمالة.

فانتظمت في الطوابير مغصوباً وتحملت الدفعات التي حاول أولئك الثيران جعلها رقيقة، لكنها خرجت كذانات المدافع. استويث في المقعد الأخير ثزاحمني فيه ثلاث من القامات إياها، الكبيرة مقاماً وحجماً، فأكملوا القضاء على الهدام والأناقة التي صرفت عليها الألوف حرفياً.

تحركت الحافلات باتجاه المكان المنشود، وكلّي أمل أن ما يحدث هو مجرد عبث، وأني وُضعت مع هؤلاء على سبيل الهفوة أو الزلة التي لن أتغاضى عنها، كعادتي سأبدو متسامحاً وأعفو عن المخطئ، لكنني سأتريص به حتى أحلف اليمين الدستورية وبعدها سيكون الانتقام الذي لا يُبقي ولا يَدُر.

أه، تذكرت اليمين الدستورية، ما إن استشففت موضوع الترشح والوزارة حتى بحثت في مكتبتي عن كتاب يحتوي نص اليمين الدستورية وكتبتها في ورقة، ثم تدرّبت عليها يوميًا عشر مرات أمام المرآة وأنا أرتدي بذلتي الكاملة بربطة العنق والحذاء اللامع، والذقن الأملس وتصفيفة الشعر المثالية، كأنها بروفة فيلم سينمائي.

في كل مرة كنت أسجل المشهد وأعيده أكثر من مرة لأسجل الأخطاء وأدرسها وأتلافى تكرارها.

هذه المرة لم أنظر لعيني فخامته، تلك المرة تلجّجث في مقطع "وسلامة أراضيه" عندما تذكرت مشكلة الحدود بين بلادنا والجيران.

وهكذا تدرّبت وتدرّبت حتى أتقنناها تمامًا، فلا مجال للأخطاء، في المرات الأخيرة أصبحت أجيد إلقاءها بالكامل بدون النظر في الورقة بمنتهى الثبات الانفعالي مع بسمة خفيفة واثقة كأنما انضمامي للمنظمات السيادية هو أمر مُعتاد أفعله كل صباح.

أفقت من خواطري على وصول رتل الحافلات لباحة المسجد العملاق، العملاقة بدورها، لنجد على كل حافلة أحد الثيران الآدمية أكثر ضخامة من سابقه، يقف متحفزًا يرمقنا بصرامة قبل أن يفتح الباب فينظم نزولنا بالترتيب كعساكر الجيش لنتحتم مع أفراد الحافلات الأخرى في خط طويل لا بداية له ولا نهاية.

حاولت الخروج عن الصف لأتكلّم مع أحدهم وأشرح وجودي الخاطي هنا، فأعادنا للصف بلهجة حاول أن تكون لبقة لكنها صارمة لا تقبل الجدل أو الاعتراض، لهجة من تعود الأمر وتعود من الآخرين الطاعة، فعدت للصف صاغرا.

لأتلقى الصفعة الثانية على كبريائي المعنوي!

فالطابور الطويل يتجه نحو مجموعة أخرى من الثيران تحمل العديد من اللعب الورقية مدبوغة بعلم الجمهورية وصورة فخامته.

ولما تزايد اللغط بين الجموع، كانت هي شخطة واحدة فساد الصمّث المفترض من جديد، وصلت إليهم وتسلّمت اللعبة لاكتشف أنها.. السحور.

هذا هو السحور، ولن نقابل فخامته!

ولن أقابل أنا فخامته!

رفضت المزيد من الإهانات وقممت لأرحل من هذا الاختناق بالوهم، وأن أفك
ربطة عنقي وأمنع دموعي من الانزلاق.

لأتلقى الصفعة الثالثة على كبريائي المعنوي!

وأنت بصوت صارم مُغلف بالاحترام: "ممنوع، ولن يرحل أي فرد حتى صلاة
الفجر مع فخامته".

حاولت الاعتراض، فتلقيت نظرة واحدة، مجرد نظرة جفدت الدم في عروقي
حتى كدت أفقد التحكم في مثائتي، فقدت التمسك بركبتي المرتعشتين فجلست
حيث أنا.

جلست مع الجالسين لسبّ ساعات متواصلة على الكراسي ممنوعاً من الحركة،
سبّ ساعات حتى تُودي لصلاة الفجر، فصلّى فخامته بالداخل ونحن كلنا بالخارج،
ثم غادرا!

نعم، ببساطة.. غادر.

ولم يزه أي من الحضور، فلم أعلم كيف غدت بالحافلات ولا كيف وصلت إلى
البيت.

ولم أذكر من تحدثت معي. كل ما أذكره هو انقباضة قلبي التي تتصاعد الآن.

تتصاعد وأنا أفتح موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" ليصفيني المانشيت
الرئيس لموقع إخباري شهير يُشير لمقابلة فخامته مع...

أه!

تقرير

تقرير نيابة..... العامة في الواقعة المذكورة.

انتقلنا نحن.... بصحبة معاون المباحث الرائد..... للمعاينة في البلاغ المقدم من..... حارس العقار رقم الكائن في..... الخاص بالسيد.....

وقد أفاد أنه يحمل نسخة احتياطية من مفاتيح مسكن المذكور أعلاه لتلبية احتياجاته اليومية؛ من مشتريات وتنظيف وخلافه بسبب طبيعة حياته منفردًا بلا زوجة أو أولاد، حيث إنه عاش كرجل محترم طوال فترة إقامته في البناية لم يُسمع له صوت، ولا تشاجر مع جار أو بائع. كريم، هادي، قليل الطلبات، جدول حياته منتظم: من عمله بالجامعة إلى المنزل، وبالعكس، لا تتحرك سيارته لأي مشاوير أو نزعات إلا فيما ندر.

لم يتزوج، ولا تزوره النساء، ويُعاوده عدد قليل من المعارف على فترات متباعدة، لا يُعاقر الخمر، حياته تقتصر على عمله الذي يُقدسه. كثيرًا ما تباسط مع عمال توصيل الطلبات عندما يسأله أحدهم استشارة طبية بأن كلمة "دكتور" التي تسبق اسمه لا تدل على عمله في الطب أو العلاج، بل درجة علمية متخصصة في مجاله. يُسهب في شرح أهمية عمله ومدى خبه له، بعدها ينقد عامل التوصيل "بقشيشًا" سخيًا كاعتذار بسيط عن تعطيله كل تلك المدة.

ولا يشتبه الحارس في أي تدخل أو اعتداء من أي نوع، بسبب طبيعة المتوفى المسالمة وسنه الكبيرة مع وقاره وشيئته، وأكد على عدم امتلاك أي أقرباء أو معارف لمفتاح المنزل سواه، حيث اعتاد على تنظيفه بالكامل يوم الجمعة وطهو بعد الأظعمة البسيطة تكفيه لمدة أسبوع، يشكره الطبيب بعدها بحرارة ويُجزل له العطاء بل، ويقسم عليه أن يقاسمه الطعام، عندها يُسهب في الحكى عن اختياراته التي ندم عليها وعزوفه عن الزواج.

شعوره بالوحدة الشديدة في ليالي الشتاء الباردة، فلا يؤنسه إلا "جرامفون" قديم يعتز به، ويشترى أسطوانته السوداء الكبيرة القديمة من بائعي الأنتيكات

بأعلى الأثمان، فهو فِصْرٌ على أن صوت أم كلثوم المنبعث منه له شجن خاص يُعيد إليه ذكريات الأهل والأحباب الذين انفصوا من حوله.

وتصادف أن حارس العقار لم يحضر في الجمعة المتفق عليها بسبب سفره إلى بلدته في الصعيد- بعد استئذان الدكتور- لقضاء العيد، الذي وافق بمنتهاى الحبور بعد أن لمّح لانتظاره خبزًا عظيمًا يشتاقي إليه منذ سنين، ثم نقد الحارس مبلغًا من المال كـ"عيدية" والسعادة تتقاذز من عينيه.

مرت الإجازة، وعندما فتح الحارث باب المنزل تصاعدت إلى أنفه رائحة زنخة خفيفة، لكنه تجاهلها، ودخل بقهوة الدكتور التركية التي يُفضلها في صباح كل جمعة من يده. عندما وجده بكامل ملبسه وقلقى على وجهه فاقداً للنطق، حاول إنعاشه، ولكن بلا فائدة، فقام بتقديم البلاغ من فوره على رقم شرطة النجدة.

وبمراجعة التقرير الشفوي المبدئي للطب الشرعي المصاحب للضبطية تبين الآتي:

المذكور تُوفي إثر أزمة قلبية انتابته في صباح اليوم بلا أي مظاهر أو آثار لاعتداء جسدي أو شبهة جنائية، وبفحص متعلقات الجثة وقت الحادث تبين أن بحوزته:

عدد واحد محفظة جلدية بها بعض كروت الائتمان، وأوراق إثبات الشخصية، وبعض أوراق النقد المحلية بقيمة بسيطة.

مفاتيح سيارة حديثة ماركة....

علكة بطعم النعناع أجنبية الصنع.

بطاقة وظيفته بالجامعة وتحمل اسم:

دكتور/ عبد الحميد خليل.

هاتف محمول من طراز..... بدون كلمة سر، وبعد فتحه تبين أن الشاشة كانت مغلقة على لقطة مثبتة من موقع إخباري شهير بمانشيت النسخة الصباحية من الجريدة، وكان النص كالاتي:

استقبل فخامة الرئيس السادة المرشحين الجدد في التعديل الوزاري المحدود.

وبعد عدة مُداولات لاختيار الأصلاح في الفترة القادمة الحرجة من حياة البلاد، استقر اختيار فخامته على السيد رامي عاطف لتولي حقيبة وزارة التعليم، والجدير بالذكر أن معالي الوزير يُعد من الكفاءات النادرة، وله العديد من الإسهامات في تطوير العملية التعليمية في الفترة السابقة.

أما حقيبة وزارة التعليم العالي، فقد فُضّل فخامة الرئيس تجديد دم الوزارة والاستعانة بالعناصر المتفوقة من أبناء البلاد بالخارج، بالإضافة لزيادة دور المرأة العاملة في المناصب القيادية، وبعد بحث كثيف وقع الاختيار على دكتورة من جامعة أمريكية شهيرة كانت قد هاجرت للخارج لمحاولة دراسة الأساليب والتقنيات المتطورة المصاحبة لمجال تخصصها، ونجحت بالفعل في الحصول على أعلى المناصب والدرجات العلمية، بل والتدريس في الجامعة التي درست فيها، وهي معالي الوزير الدكتورة/ سوسن عبد المهيمن، والجدير بالذكر أنه.....

أنا خائف

نعم أنا خائف.

لن أمثل أو أتصنع أو أذعي، ربما للمرة الأولى في حياتي لن أكذب على نفسي أولاً وعلى الآخرين ثانيًا.

أنا خائف.

أرقد وحدي على فراشي في ليلة شتوية باردة، منكمشًا على نفسي، تتلاحق أنفاسي بوتيرة متصاعدة بلا توقف، البيت خاوٍ من حولي بعدما تناقست عائلتي الصغيرة فردًا تلو الآخر، رحلوا وتركوني وحدي.

لا يدركون أنني خائف.

أعلم أن أجلي يقترب، أشعر به بداخلي، لم أكن أصدق عندما يدعي أحد العجائز أنه يشعر بقرب الأجل، لكنني بالفعل أشعر به يقترب، ربما لن أكمل على هذه الدنيا يومًا آخر، لكن ما يعزيني أنني عشت طويلًا، ربما أطول مما ينبغي!

ولكن أنا خائف من القادم، من المجهول، مما بعد الموت!

عشت حياتي كلها أردد لنفسي، ولكل من حولي أنني لا أخاف.

لكنني كنت أكذب!

منذ طفولتي أخاف أمي الطيبة الحنون شديدة العصبية، لم أكن أدرك وقتها كم تعاني من تربية ثلاثة أولاد في منزل طويل عريض وحيدة، يعمل زوجها طوال اليوم ولا يعود إلا قبيل النوم؛ ليستلم محبتنا "على الجاهز" كما كانت تقول دومًا.

لم يذم ذلك الوضع بشكل طبيعي طويلًا، مرض أبي وزاده موت جدي مرضًا؛ فأقعد عن العمل وانتهت حياة الرغد التي كنا نحياها بسبب عمله في التجارة، فلم نغد أغنياء أولاد أغنياء كما كان يقول، وبدأنا في الإنفاق من التل حتى اختل. هنا اضطرت أمي للعودة إلى عملها الذي توقفت عنه بعد الزواج، فتحولت لرجل البيت

زادت شخصيتها قوة ومعها أعصابها المحترقة، ضغوط العمل والعودة إلى منزل ينتظر العناية وزوج حبيس الجدران تضائل دوزه حتى قارب على الاختفاء. وجد ضالته في شاشة الكمبيوتر يطالعها ليل نهار، وعندما يحين المساء ينام جالسا فمرضه لا يسمح بالمزيد.

زد على ذلك ثلاثة من الأولاد تحوّلت حياتهم بسرعة من الطفولة العادية إلى الشجار والنقار، إلى مذاكرة وتأهيل للمدرسة. مرحلة خطيرة وتحتاج لتدخل مباشر من الأب، لكن بلا جدوى.

كل ذلك جعل أمي شعلة من نار، عصبيتها لا تنضب، بينما أنوثتها تفعل، فأصبحت أخافها بشدة، حتى آتي المهرب الوهمي؛
المدرسة.

ذهبت إليها متحمسا، فربما تكون أمتع وأقل رعبا من البيت، لكني كنت واهفا؛ فقد كنت طفلا سميئا طويلا فيعتقد من يشاهدني من بعيد لأول وهلة أنني مصدر للرب، لكن عندما يقترب مني ويشاهد ملامحي البرينة الساذجة، ويقترب من روحي المخوذة يتأكد أنني مجرد بالون أجوف غير فخيف على الإطلاق.

وما زاد من ذلك؛ هو أنني أصغر أقراني سنا، فقد أصرت أمي بشخصيتها التي أصبحت كاسحة أن ألتحق بالمدرسة مبكرا، فتكاثفت الظروف حتى أصبحت مركز اهتمام الجميع. الأطفال وجدوا فريسة سهلة؛ سميئا بطيء الحركة، بؤخة ممثلة ورغبة في التماهي مع الجميع، وتحفل بالإساءة رغبة في الاستمرار بين الزملاء، فكنت النموذج المثالي للتحزب اللفظي والجسدي والتنفر على شكلي.

أما الأساتذة فوجدوا في طفلا سهل الانقياد، طيفا مثل العجين يخاف من مجرد النظرات، فأخرج كل منهم قبح نفسه وصديد مجتمعه في مرحاض روحي، أخرجه فيمن لا يقدر على الرد أو الفهم وقتها.

فمرت سويعات المدرسة وكأنها قرون، أخشى فيها مجرد التنفس. أقبع في وسط الفصل، لا أنا في المقدمة مثل المتفوقين المنبوذين، ولا أنا في المؤخرة مثل

الفاشلين الأكثر شعبية، حتى في وقت الفسحة أتناول شطائري في ركن "حوش" المدرسة بعيدًا عن كل الأنشطة واللعب المنتشر بلا توقّف، لا أتواصل مع أي زميل؛ اللهم إلا عندما يتحرش بي أحد التلاميذ الأكثر مشاغبة راغبًا في إحدى شطائر اللحم البارد أو المربي المختلفة عن خاصته من الجبن الأبيض.

لكني تجاوزتها، بمعجزة نعم، وعبرث منها بالكثير من المخاوف التي تحققت.

خفت من أقوى فئى في الفصل.. فضربني.

خفت من المدرس الشرس صاحب الصلعة الفسيحة.. فعنفني.

خفت من امتحان الثانوية العامة.. فحصلت على أسوأ مجموع ممكن.

خفت من توزيع التنسيق.. فألقيت إلى جامعة في الأقاليم.

خفت من عدم الوقوع في الحب أثناء الدراسة الجامعية مثل زملائي.. فلم أفعل.

من التي ترضى بسمين مُترهل تنقصه الوسامة وخفة الدم، وأمامها مفتول العضلات والظريف وفتى الشاشة بمقاييس عُمرنا!

خفت أن أتقرب من الجميلات محظ أنظار الجميع.. فانتقيت الدميمات السمينات مثلي، أو بقايا طعام الآخرين، من استهلكها الآخرون شعورًا وأحيانًا جسديًا. وللسخرية؛ بالرغم من ذلك لم ترض إحداهن بي.

وتردد في جنبات عقلي وصفهئ لي: "أنت مثل أخي". عليك اللعنة أنت وأخيك وعائلتكم كلها. لا أريد أن أكون أخاك، أريد أن أكون حبيبك، حبيب أي واحدة، أريد أن أكون محبوبًا في المطلق دون تحديد أي واحدة، أريد الشعور بالحب.

فقد كنت أخاف ألا أجد ما أستعرض به في مجالس المقهى مع الشباب، الكل يحكي مغامراته النسائية الحقيقية منها والخيالية، وأنا لا أجد ما أقوله، ولا أجد تأليف الحكايات.

فأحبني الرجال!

ربما لأنني مُستمع جيد دائم الانبهار، لا أقاطع استعراضهم وأصدق كل شيء.

هنا فطنث لنقطة قوة في نفسي لم أدركها من قبل، فجزبتها مع الفتيات، فزادت شعبيتي بصورة خرافية، وتنقلت بين المجموعات الطلابية أو لنقل "الشَّل" بمنتهى السرعة، حتى وصلت إلى أعلى وأرقى الطلاب؛ طبقة المحبوبين، أو محظ الأنظار.

وكان ما حدث عبارة عن وضع طبيعي؛ الكل يحب من يستمع إليه وينبهر، الكل يبحث عن يصدق أكاذيبه ويصفق لقراراته الخاطئة، بالأخص الفتاة، فلم تُخلق بعد الأثني التي لا تحب من يستمع إليها بتركيز وينفعل مع قصصها ويتعاطف مع مشاكلها البلاء، أما لو واساها في قراراتها الخاطئة وأقنعها -أو أمن على قناعتها- بأن الخطأ ليس من عندها، بل هم الآخرون أو المجتمع أو أي شخص آخر هو المخطئ ما عداها.. من يفعل ذلك فقد ملك عليها وجدانها ولا تتخلى عنه مقابل كنوز العالم!

وقد فعلت كل ذلك وشعرث معه لأول مرة أني ربما أجد بعض السعادة.

لكن هيهات!

أتوا أفواجا لمقام روعي ليتخففوا من أوزارهم وحمولة أرواحهم، ولما تأكدوا أن ما يقال يبقى حبيس نفسي، فتكلم الكل بلا محاذير، وحكى.

الكل حكى ذنوبه وأوجاعه، الكل ألقى داخلي قاذوراته؛ فرأيت الناس على حقيقتها، أصبحت أخافهم أكثر، وزاد تقووعي على نفسي أكثر فأكثر، فلم أجد من يسمعي أنا أو يتحمل معي ما فيها من تشوهات فانعزلت.

حتى انتهت سنوات الكلية ومعها حدثت المعجزة؛ وحدث من ثحبي أخيرا.

فتاة لا مليحة ولا قبيحة تعلقت بشاب يُمثل طموحاتها كلها. وسيم، خفيف الظل، يقلد طريقة وحركات الممثل أحمد السقا في مشيته وكلامه، بل ويتقمص ما هو مشهور عنه من "جدعنة" ولاد البلد، حتى ليكاد أن يضع مثله شامة على جبينه. تقاربا، ارتبطا، أحبته، ألقاها في أقرب سلة مهملات عندما دق قلبه لأخرى، أتت إلي تلقي في سلة مهملاتي بقايا عشقها، وأنا استمعت كالعادة ودافعت عنها، وقلث ما أراح قلبها.

كم هو وغد، تلاعب بمشاعرها، وكم وكم وكم...

ولأول وأخر مرة أفضى الاستماع إلى تعلق، فقد وجدث في أذني ضالتها، أخيرًا
رجل لا يتكلم، بل يستمع فقط، ولو تكلم فهو يقول ما يرضيها، فأخذت تتكلم بلا
توقف على مدار الشهور، فاستعادت تألقها وسفمت روعي.

ولكنها تعلقت بي، ويومًا ما بلا أي مقدمات ألقته في وجهي قائلة: "أنا أحبك"،
فدون تفكير وجدث نفسي أقولها بالمثل دون أدنى شعور بها، ربما كنت أخاف ألا
أقولها للأبد!

- أنا أيضًا أحبك!

وتزوجنا بعد المزيد من الخوف.

خفت أن يرفضني والذها، خفت أن ترفضها والدتي، خفت أن تبتعد عني، خفت
أن أقرب أنا منها.

ولكن تم المراد.

وفي ليلة العرس، خفت ألا أقدر على المطلوب؛ فأنا عديم التجربة ولكن للعجب
استطعت، وهنا لا تكتمل فرحتي؛ فهي لم تكن عذراء!

حتى عندما رضيت بأي امرأة لمجرد أن أعيش إحساس الحب والزواج، أكلت
بقايا غيري، بعدما قطف هو الزهرة وترك لي الشوك، وكالعادة خفت من الفضيحة
ولم أتكلم، واكتفيت بنظرة عتاب مرتخية إليها.

لم تُبادلني إياها بنظرة اعتذار حتى!

خفت أن أكون الفشل المجسد فأكملت حياتي الزوجية مع سيدة بيعت لي على
أنها جديدة دون أن أملك الحق في مقاضاة البائع، وللدقة دون القوة اللازمة
لمواجهته.

استمرت الحياة بين خوف وخوف حتى تعزفت على الفتى الذي انتزع براءة
زوجتي، وأصبح صديقي!

ولم لا، وبيننا الكثير من الأمور المشتركة، من بينها طبعًا زوجتي!

كل يوم أراه فيه ينظر في عيني بقوة، يتحدث، بانتصار كأنه يقول: "أنت تعلم أنك

تستعمل بقايا ما تركته لك".

وأنا أنظر إليه بخوف، بمهانة، باستكائة، برجاء ألا يفضح المستور.

وحملت ثم أنجبت زوجتي، وخفت أن أسأل من هو الأب.

ثم حملت ثم أنجبت فتاة، وخفت أن أسأل من هو الأب.

ثم رحلت، بلا مقدمات، رحلت وخفت أن أسأل: إلى أين؟

رحلت وتركتني، وأنا الآن خائف.

أنفاسي تتحسرج وتفقد انتظامها، أشعر بالصقيع يغزو أطرافي، إنه الموت لا

ريب.

أشعر به، أشفه.

بل أراه!

أراه رجلاً له هيبة، وسيم الطلعة، يرتدي الأبيض، يخالف كل ما تخيلته.

يمد يده لي، أتمسك بقبضته القوية، يسحبني بحزم لكن بخنق.

مهلاً.

أنا لسث خائفاً.

أخيزاً!!

قطعة السكر الأخيرة

أجلس لأنتظر دوري بصحبة أبي في عيادة الطبيب الشهير المزحمة دوماً، تسليت بتأمل المكان المضاء بشكل مريح لتزجية وقت الانتظار الطويل، الأبيض والأزرق يغلبان على المكان من إضاءة الحوائط، الأثاث حتى ملابس الممرضة ذات الوجه المبتسم التي تنظم دخول المرضى، حتى أبي ارتدي طاقمه المفضل؛ قميص أبيض مترهل على جسده الذي نحل من جراء فقدان الوزن المصاحب لمرضه وبنطال أزرق يعيده إلى وسطه كل خطوتين يتحركهما.

شاشة تلفاز تعرض صورة فيديو متحركة لمناظر طبيعية خلابة يغلب عليها الشواطئ ولون البحر الشفاف الأزرق بدوره مع موسيقى هادئة مريحة للأعصاب أقرب إلى منومة.

أدركت أنها بالفعل كذلك عندما تعالي صوت خفيض من أبي الذي انزاح رأسه على صدره وغط في سِنَّة خفيفة، تبسّمت مشفقاً وعدلت رأسه فاستفاق وقال كلمته الشهيرة بانتفاضة بسيطة:

لم أنم.

ربث على كتفه مطمئناً فاستراح وسرح يتأمل منظر الطبيعة على الشاشة وجفناه يقاومان التلاقي، لازمته جملة (لم أنم) منذ تطور مرضه وتكررت نوبات نومه في أوقات غير متناغمة من اليوم، سحبتني الذكريات لجلسة مشابهة؛ أنا وهو في نفس المكان، نفس الانتظار، حتى أبي بنفس الهدام الأبيض والأزرق وإن كان وقتها أطول وأعرض بطريقة ما رغم عدم انقضاء وقت بعيد (ملء هدومه) كما يقولون. يومها هو اليوم الذي بدأنا متابعة حالته مع الطبيب.

يومها دخلت على الطبيب الغرفة البيضاء الزرقاء بدورها محفلاً بكل التحاليل والأشعات والتقارير المطبوعة والمصورة والمضغوطة على أسطوانة إلكترونية، كلها... لم أغفل ورقة واحدة منذ بدأت حالة أبي في التدهور وسقط مصاباً بعدة جلطات متفرقة بسبب مضاعفات السكري اللعين، بعد السيطرة على الحالة

وخروجه من العناية الفائقة وإذابة اللعنت المسماة الجلطات، تأثرت قدرته على الحركة والقيام بعناية نفسه الشخصية ما بالك بالعمل، نصحوني (أولاد الحلال) بهذا الطبيب فائق الشهرة شديد المهارة، فحضرنا وجلسنا وانتظرنا ودخلنا.

قابلنا ببذلة السماوية المغطاة بمعطف الأطباء الأبيض التقليدي وببسمة رقيقة مطمئنة على وجهه الوقور الخبير فاطمأن بالي بعض الشيء، وقف ليستقبلنا وأصر على مصافحة أبي بيده رغم صعوبة رفعها، وطلب منه أن يشد أصابعه فلم يستطع الأخير، غير أن الطبيب داعبه قائلاً:

قبضة قوية يا حاج، لا بد أنك كنت مصارعاً في شبابك.

-بل ملاكم... أيام الجامعة.

وكان استفسار الطبيب هو جرس بداية جولة الملاكمة في شباب أبي المغدور، فانطلق يشرح ويستطرد في وصف بطولاته وصولاته والحلبات التي ارتجت بضرباته القاضية وقد انتابته الحماسة عندما شجعه الطبيب ببسمة صامتة وتعليق مجامل فلم يتوقف، ظل يتكلم أكثر مما يحتمل الظرف أو وقت الطبيب بلا كلل كأنما سر أبي بوجود من يسمع ثرثرته المتكررة التي لازمته مع سقطته الأخيرة.

لم يتململ الطبيب ولم يقاطع، بل استأذنه في النظر للتقارير وأوراق حالته وهو يحكي، فلم ينتبه أبي لتعليق الطبيب بل استمر يحكي ويحكي بلا توقف وعيناه سارحتان في الفراغ المنتمي لزمان ولئى، حتى ولو كنا أنا والطبيب لا ننظر إليه.

لكنه استمر وانخفض صوته بالتدرج لينسحب لخلفية مشهد الطبيب الذي تركز كيانه عليه.

فقد كان الأخير يتأمل ما على مكتبه باهتمام وأنا أتأمل ملامحه هو باهتمام أشد بحثاً عن أي تعبير في قسماته البشوشة، تقطبية، زفرة، لمعة عين، انفراجة شفة، أي بادرة طمأنينة تريح قلبي نحو آخر أفراد عائلتي.

خُيل لي أن الوقت تجمد، الطبيب يحدق في تقرير بعينه كأنما يفك شفرة لغة عتيقة، وأنا أحدق في ملامحه بتركيز وأبي صوته يتباطأ رويداً رويداً في ذهني، حتى رفع الطبيب وجه الضحوك ورسم على ملامحه بسمة مطمئنة فعادت

الموجودات والأصوات لسرعتها الطبيعية، بل عاد تنفسي لانتظامه.

بدأ الطبيب بذكاء مقاطعة أبي عن الاسترسال في حكاياته، وطلب منه إجراء بعض الحركات التي تبدو بسيطة لأي شخص معافى، فرد ذراع، ثني أصبع، بسط اليد مثل أجنحة النسر يمنة ويسرة، ولاحظت تركيزه على الجانب الأيمن الذي أصابه شبه عطب، رأيت بعيني ما أنكرته طوال الفترة السابقة، الجمل برك ولم يعد الوحش المسمى أبي ملء السمع والأبصار، بل صار بقايا رجل هزمه المرض أو الحياة أيهما أقرب!

ذراعه ترتعش ولا تثني، أصابعه لا تنقبض، لسانه لا يعتدل.

لكن الطبيب وبنفس الهدوء ونفس الابتسامة المشجعة شرح لأبي أن كل ذلك زائل، ولم يكتف بكلمات قليلة بل أسهب في شرح ووصف وحكي عن أصيب بنفس الأعراض، ولم يتعاف فقط بل طلب منه ترشيح عروس صغيرة ليجدد بها شبابه، عندها ارتسمت ابتسامة واسعة علي شفثي أبي كانت بالنسبة لي أقرب لصوت قهقهته أيام العنفوان.

حول الطبيب دفة الحديث ببراعة نحو الخطة الموضوعية التي سنتحرك من خلالها حتى نسترد عافيته وقدراته على القيام بالمهام الطبيعية، مع التقليل من المجهود وعدم القيادة أو الذهاب للعمل في الوقت الحالي، ولما لاحظ بوادر اعتراض على ملامح أبي واستعداده للرفض القاطع، سبقه وشدد على كلمة (الوقت الحالي) وهو يفتح كفه مهدئاً لثورة لم تنطلق من عقالها بعد.

بدأ في رسم ووضع التعليمات مع انتقاء شديد الذكاء للألفاظ بحيث لا توحى لأبي بعجز أو تقييد حركة بقدر الإيحاء بصيانة مؤقتة لأجزاء الجسد في سبيل انطلاقة أقوى مما سبق.

لانت ملامح أبي ولكني لاحظت أن الرجل لم يتطرق قط لتشخيص الحالة، لف ودار حول الموضوع بشكل سحري خلب لب المريض ولكنه لم يفعل معي؛ غير أن السبب تجلى عندما طلب الحمام صديق كل مريض سكري من أبي زيارة تبول سريعة، بمجرد اختفائه وراء باب غرفة الكشف تحولت ملامح الطبيب الوقورة الباسمة لمتجهم جاد وصرخ بكلمات مقتضبة بما كنت أخشاه:

الحالة متقدمة، نحن لا نتكلم هنا عن مريض قلب مصاب بمشاكل في الأوعية؛ بل عن مريض مضاعفات سكري متطور، الأوردة منهتكة، عضلة القلب متضخمة، قدرة القلب نفسه لا تتجاوز الثلاثين بالمائة، ونحتاج لمراجعة طبيب عيون متخصص؛ فهناك تأثير مباشر متوقع في مثل هذه الحالات على شرايين العين مما سيؤثر بالسلب على الرؤية، و... و....

صكت أذني عن كلامه فلم أعد أسمع إلا همهمة غير مفهومة عندما دارت الدنيا بي، غامت في عيني من قطرات الدمع المحبوسة وأصبحت أجاهد للاحتفاظ بثبات عقلي ووعيي.

لكني أفقت مع توقف الكلام لهنية وتشديد على جملة واحدة مركزة قالها بلهجة ذات مغزى واضح:

قنبلة موقوتة، ولا نعلم بالتحديد متى ينطلق موقتها. كل مهمني هو تأخيرها قدر المستطاع، لكنها ستنطلق لا محالة.

ما إن ختم جملته حتى سمعنا طرقة واحدة خفيفة مركزة ميزت فيها ضربة مفصل أصبع أبي علي الباب، فتح بعدها ودخل متناقل الخطوات مبتل البنطال بماء الطهارة!

هنا تحولت لهجة وملامح الطبيب العطوف في لمح البصر. كممثل محترف عاد لتصنع البهجة وأكمل شرح باقي خطة العلاج لأبي، الذي تجاهله وركز - بقايا دقة ملاحظته المعهودة من الأيام الخوالي - على ملامح وجهي المكفهر ودموعي المكبوتة متسانلاً عما ألم بي، لكنني سحبت منديلاً من الطاولة بلا استئذان ومسحت عيني ثم تحججت بحساسية الجيوب الأنفية وتغيير الفصول، فعاد أبي بنصف انتباه للطبيب ونصفه الآخر معي كأنما لم تنطل عليه الحيلة.

لكن الأخير عاد فسحب جل انتباه مريضه، بدعابات تغلف تعليمات؛ ترسم حياة صارمة تفتقر لكل المتع التي يقدها أبي، من طعام دسم، عمل شاق، تدخين، جنس ولو حتى في أضيق الحدود.

كل ذلك تجاوزه أبي إلا الأخيرة. فقد سجل اعتراضاً واهنا بأنه ما زال في الخمسينيات ويتمتع بعنفوان ثور، لمحت شبح ابتسامة مشفقة على شفتي الطبيب

لم تتغل لصوته الذي أفن على كلام أبي، وشدد بأن كل ذلك وضع مؤقت يعود بعده ليهز أركان الحلبات.

ارتاح لكلمة الطبيب كأنها سره، عدم معرفة الناس بسره المصاحب لمرضه.

لكن نورته الحقيقية كانت عندما شدد الطبيب على منع السكر الأبيض بكل أنواعه، لا تقليل، لا تحجيم، بل منع كامل، كنت أعرف عادات أبي الغذائية المتحورة حول الحلوى، فهو يقدر على قطع كل شيء، يمتلك إرادة فولاذية نحو أي شيء يرغب في منعه، حتى السجائر اللعينة يستطيع مقاطعتها للأبد ... إلا السكر.

هو نقطة ضعفه الكبرى والأولى والأبدية، ورت خبه - كما يقول - من أبيه وأجداده، لم يكونوا من عشاق السكر فقط، بل من تجاره أيضًا، فقد كان جده من كبار مصنعي العسل الأسود من سكر القصب في الصعيد، وأبوه ورت مهنته وطورها لمصنع مختص في ذلك، حتى جاء أبي ونقل الموضوع ليصبح علامة تجارية مختصة في كل ما هو حلو المذاق من عسل وحلاوة طحينية ومشتقاتها.

فنشأ أبي علي تقدير ومحبة وتذوق السكر، فأصبح جزءًا غير قابل للاقتطاع من حياته، حتى عندما أصابته وعكة بسيطة مبكرة اكتشف معها إصابته بالسكري أثناء طفولتي، كان يهرب من قبضة أمي الصارمة بالذهاب للعمل وتناول ما يشاء هناك، ولم يكن أي من عماله يستطيع منعه فهو من يفتح بيوتهم.

ولم يكتف بذلك؛ بل كان في أيام الأحاد المتزامنة مع إجازة المصنع الأسبوعية يفضل إحضاري من المدرسة بفرض إراحة أمي قليلًا - كما كان يدعي وقتها - ولكن السبب الرئيسي اكتشفته عندما كنت أركب بجواره السيارة الفاخرة - بمقاييس التسعينيات المجيدة - المرسيديس (التمساحة) وأعثر أسفل المقعد على أغلفة الشكولاتة المفضضة البراقة، أو بعض فتات البسكويت المتعلق بشاربه الكت فاحم السواد آنذاك.

عندها كان يمد يده في جيب بنطاله الأزرق الأثير ويعطيني واحدة من نوعه المفضل وهو يتلفت حوله مشدداً على أن ذلك هو سرنا الصغير.

كل هذه الذكريات أخبرتني كم ستكون الأيام القادمة قمة في الصعوبة.

لكن الطبيب قابل ثورة أبي بذكاء؛ عندما رسم معالم الأسف على وجهه وقال:
مما فهمت من كلامك يا حاج، العمل هو أهم مقومات حياتك، يؤسفني القول لو
لم نقدر على تحجيم السكري فلن نستطيع ممارسة عمالك كما كنت.

هنا كدت أن أنتفض واقفاً مصفحاً محترفاً ذكاء الطبيب، فأقصى طموحاتنا الآن
هي تجاوز مضاعفات الجلطات وبقاء الوضع مستقرًا، ولو عاد نصف جسده للعمل
بشكل طبيعي وخفت تلك الارتعاشة فهو إنجاز غير مسبوق، لكن الرجل لم يتكلم
عن هذا، بل زرع جذور الأمل في نفس مريضه بتجاوز كل ذلك الألم والمرض
والعجز، بل والعودة لكامل عنفوانه إلى درجة ممارسة عمله الشاق.

وكما توقعت الكارت الذي ألقاه الطبيب أتى أكله، فتحولت ملامح أبي بطريقة
سحرية من ثورة والرفض، للتصميم والقبول.

جلسنا لربع ساعة أخرى نحدد تفاصيل العلاج والأدوية المقترحة ومواعيد
المتابعة، وقبل انصرافنا وأنا أغلق باب غرفة الكشف تلاقت عينايا أنا والطبيب
فلمحت فيهما بسمة متعاطفة شبه مطمئنة شبه مشفقة.

في طريق الخروج من المكان لمحت تعلق عين أبي بأضواء محل العصائر الشهير
متعدد الفروع الملاصق للعيادة، وبالتحديد نظراته المثبتة علي نوع معين يعشقه
في القائمة. خليط من الفواكه والعصائر مع كمية ضخمة من الآيس كريم المغطى
بطبقة من السكر المحروق!

عدت من ذكرياتي على صوت الممرضة الرقيق يدعونا للدخول، فقممت أتأبط
ذراع أبي لأساعده على الحركة نحو الباب، بمجرد دخولنا قابلنا الطبيب ببسمة
الودود وقام من مقعده ليستقبلنا فصافحني أولاً، ثم صافح أبي بكلتا يديه كأنما
هو صديق لم يره منذ مدة، مع أننا لم نقطع عن ميعاد المتابعة الدورية ولا حتى
مرة واحدة طوال الفترة الماضية، أراحني الطبيب بلين وأجلس والذي بنفسه على
المقعد وجلس أمامه وليس على مكتبه كما هو معتاد، تلك كانت إحدى الملاحظات
العديدة التي سجلتها في ذهني عن طريقة الطبيب التدريجية في إزالة الحاجز
بينه وبين مريضه، فيتحول بالتدريج من زيارة طبية ثقيلة إلى لقاء دوري بين
صديقين.

عزز تلك الملاحظات سؤال الطبيب عن الأحوال والأحقاد والثناء على ملابس أبي البيضاء والزرقاء دون التطرق للكشف أو المتابعة إلا بعد حين، عندما لانت ملامح أبي المتوترة؛ فقد تصاعدت عليه حدة الآلام مؤخزا وارتفعت وتيرة الغفوات ولم يعد قادرا على التحكم في مثانته في أحيان كثيرة، مما زاد من عصبته فتحول إلى كتلة نارية مشتعلة، يهاجم الجميع، يسب ويعنف الكل، بلا اعتبار لمكانة أو مكان أو حتى حدث.

كثيرا ما كنت ألمح نظرات الشفقة من الجيران عندما أعود إليهم لأطيب الخواطر وأمسح ذنوبا لم ارتكبها بعد معركة من معاركه معهم بلا سبب هام.

بدأ الطبيب/ الصديق في مطالعة التحاليل والتقارير والأشعات الدورية بلا انفعال كالعادة، صمت منه، ترقب من أبي، تركيز مني.

بعد فترة انفرجت أساريره، وتبسم بما يقارب الضحك وهو يربت على فخذ أبي بقوة نسبية مداعبا:

يا راجل يا عجوز، صحتك في تحسن ملحوظ!

لم نصدق فاستفسرنا، لكنه أكد على ذلك، بل وصرح بأنه سيخفف من جرعات بعض الأدوية، فانتقلت عدوى التفاؤل والمرح منه إلى أبي الذي التفت إلي وقال بصوت مشروخ من بحة الفرح:

ألم أقل لك أنني (زي البمب) يا ابن الكلب؟

ابتسمت أنا الآخر لدعايته، فهو لا يسبني بها إلا إذا كان رائق المزاج.

جلسنا براحتنا وقد خفت حدة توتر الدخول، حتى اطمأن الطبيب على كل الأحوال، وقمنا لنرحل وقد رفض أبي أن أتأبط ذراعه في الخروج مثلما كان الدخول، وقال ما معناه إنه أفضل حالا مما أتى.

وأثبت كلامه بأن سبقني للخارج، صافحت الطبيب قبل أن أخرج، لكنه لم يفلت يدي، بل شد عليها بقبضة حديدية، وثبت عينيه في عيني بتجهم، ثم قال بصوت متجهم مقتضب:

لا تحرمه من أي شيء ...

انتفضت للوراء مفلثا يده وقد أدركت مغزى العبارة، هز رأسه مؤكداً بهمس على ما فهمت:

مسألة أيام!

غامت الدنيا أمام عيني لكنني أفقت على صوت أبي المرح ينادي من جديد فلحقت به.

فوجدته لم يتخل عن مزاجه الرائق وإن كانت قدماه قد تخلت عنه. فاستند للحائط يتحرك بحزانه في طريق الخروج، لحقت به وتأبطت ذراعه فتركه لي هذه المرة، ظللت أستمع لكلامه عن صحته التي تحسنت بعد خروجه من عند صديقه وكم كان محقاً بشأن العلاج معه - رغم معارضته السابقة لمبدأ العلاج من الأصل - وكم أنا محظوظ لأنه سيتعافى قريباً وسيعود لإدارة المصنع وينزع عن كاهلي ذلك العبء الذي أشاب رأسي على حد قوله.

أثناء خروجنا من باب المبنى حانت منه التفاتة نحو محل العصائر الذي خاصمه بسبب المرض لفترة طويلة، وثبتت عيناه لجزء من الثانية على اسم مشروبه المفضل في القائمة المعلقة على الحائط لمحت فيهما شبح ابتسامة حنين، هنا تسمرت قدمي في مكانهما حتى كادت قدما أبي أن تختل بسبب تغير إيقاع خطواتنا المتسق، فالتفتُ إلى متسائلاً، فقلت وأنا أغالب دموعي وأرسم المرح على ملامحي:

احتفالاً بقرب الشفاء، لماذا لا (أعزمك) على مشروبك المفضل؟

ما إن أنهيت جملتي، حتى أنارت الشمس في وجه أبي، فأشرق وتبسمت كل ملامحه في تعبير يجمع بين السعادة وعدم التصديق والانبهار الطفولي، أومأت مؤكداً على ما قلت وتأبطت ذراعه من جديد صوب كرسي بلاستيك أزرق داخل المكان، أجلسته وطلبت له ما اشتهاه وأضفت كل الإضافات المتاحة وبالجم الكبير أيضاً!

عدت وقدمت له اللعبة البلاستيكية المترعة بالعصائر والفواكه والمثلجات من كل صنف ولون مزينة بقطع متبلورة من السكر المحروق، نظر إلي متسائلاً بدموع

فرح تتراقص في عينيه، فمدت له يدي فاخطف العلة بيد مرتعشة واندمج في
أكلها بكل أحاسيسه، يشمها ويشاهدها ويتذوقها ويلمسها.
شاهدته بعين مغبشة من الدمع المتراكم فيها يتناول بكل جوارحه... قطعة
السكر الأخيرة.

في صباح تلك الليلة، لم يرتد أبي الأزرق والأبيض.

بل ألبسته بيدي آخر ما أخذه معه.

ثوبًا أبيض.

فقط.

تمت

Telegram:@mbooks90

شكر خاص

لم يكن العمل ليخرج بتلك الصورة المشرفة لولا مجهودات وإرشادات كثير من الأبناء.

كل الشكر لهم بقدر مقامهم وقربهم لقلبي.

بلا ترتيب.

الضديق الرواني والسيناريست / عمرو حسين؛ صاحب الرأي الشديد.

الكاتبة الشابة والسيناريست / سما هاني. جزيل الشكر لملاحظات عينك الحناسة.

البوكتيوبور والقارئ الفحترف / يسري عفت.

البوكتوكر والقارئة المميزة / إكليل.